

@ketab_n
16.6.2014
إنريكو دي لوكا
اليوم ماقبل السعادة
ترجمة: معاوية عبدالمجيد
أثر



إنريكو دي لوكا

اليوم ما قبل السعادة

رواية

ترجمة: معاوية عبد المجيد




MOHAMED KHATAB


محمد خطاب

اليوم ما قبل السعادة







الطبعة الأو

1435 هـ

ردمك 978-284409-762-0



دار أثر للنشر والتوزيع
المملكة العربية السعودية – الدمام
تلفون: 00966505774560
الموقع الإلكتروني: www.darathar.net
Email: info@darathar.net



ظلّت الكرة تتدحرج حتى استقرّتْ هناك حيث اكتشفتُ المخبأ. كان بابه السريّ مغطىً بقطعتيْ خشب، عند محراب التمثال في باحـــة البناية. لاحظت أنهما تتحركان حين دستهما بقدميّ. تملّكني الخـــوف، فحملتُ الكرة وسارعتُ بالخروج.

لم يكن إلا لطفل نحيل ورشيق مثلي أن يتسلل بين ساقي ذلـــك الملك الفارس، وأن يستدير حول سيفه المثبّت تماماً عند قدميه. كانـــت الكرة في تلك المساحة الضيقة، بين السيف وإحدى الساقين تقريبـــاً. ركلتها إلى الخارج، فتابع الآخرون اللعب بينما أحاول الخروج.

من السهل الدخول في متاهة، لكن الخروج منها يتطلّب بعـــض الجهد. كنت مستعجلاً بسبب الخوف الذي اعتراني، فعدت إلى موقعي في المرمى. كان الصبْية يسمحون لي باللعب معهم لأنني أعيد الكـــرة أينما ابتعدت. وغالباً ما كانت تسقط على البيت المهجور في الطـــابق الأول من البناية، ويُحكى أنّ الأشباح تسكن فيه. إنّ الأبنية القديمـــة تحتوي على المخابئ المغلقة والممرات السرية وقصص الحب والجـــرائم. حقاً إنّ الأبنية القديمة خير ملاذ للأشباح.

لا أنسى كيف صعدت إلى شرفة البيت المهجور في المـــرة الأولى. كنت أشاهد، من نافذتي، الفتية البالغين يلعبـــون في باحـــة الطـــابق الأرضي. ركل أحدهم الكرة بطريقة خاطئة، وطارت عالياً حتى هوت على تلك الشرفة، فانصعق الجميع. وبينما كانوا يتشاجرون بسبب تلك المشكلة العويصة، صحت من النافذة وسألتهم أن يسمحوا لي باللعـــب

معهم. طبعاً، إذا اشتريت كرة جديدة. كلا، بل بتلك، أجبتهم. فوافقوا يدفعهم الفضول. تسلّقت على أنبوب الماء المنحدر من السطح حتى الأسفل مروراً بالقرب من الشرفة. وكان رفيعاً ومتشحاً بالغبار وملتصقاً بالجدار بكمّاشات صدئة. رحت أصعد عليه، وكان الأمر أخطر مما تخيّلت. لكنني أخذت على عاتقي المسئولية وليس بالإمكان التراجع. نظرت إلى الأعلى فرأيت الفتاة، التي لطالما استرقت النظر إليها سابقاً، خلف زجاج النافذة في الطابق الثالث، جاثمة في مكانها تحني رأسها بين يديها بصمت. كانت تنظر إلى السماء عادةً، ولكنها نظرت نحو الأسفل حينها. لم أتوان عن الاستمرار في الصعود. كان العلوّ سبعة أمتار فقط ولكن الطفل قد يرى فيها الهاوية. وكنت أنقل أصابع قدميّ بحذر على الكماشات حتى وصلت إلى مستوى الشرفة. سيطر السكون على الفتية في الأسفل. صار السياج الحديدي على بعد ذراع مني، فمددت يدي اليمنى لأمسك به. اعتمدت على توازن القدمين لأمدّ ذراعي الأيسر الذي يعانق الأنبوب. قررت أن أفعل ذلك بسرعة فوصلت باليدين كلتيهما. تشبثت بالسياج كي أعوّض التوازن، فمرّت عليّ لحظة عصيبة كان جسدي خلالها معلّقاً في الهواء. وسرعان ما وثبتُ ووضعت ركبتي ثم قدميّ وقفزت إلى الداخل. هل يعقل أنني لم أشعر بالخوف؟ فهمت حينها أنّ الخوف يشعر بالخجل، فليس بوسعي التعبير عن الخوف إلا عندما أكون وحيداً. أما هناك فكانت عيون الفتية من الأسفل، وعيونها من الأعلى، تراقبني. فخجلتْ مخاوفي من الظهور أمام الجميع، وانتقمت مني فيما بعد، عندما حلّ المساء، وبتّ وحدي، في ظلام الليل والسرير، أرتجف رعباً من عويل الأشباح. رميت الكرة إليهم، فتابعوا اللعب دون أن يكترثوا لأمري. وكان النزول أسهل من الصعود بكثير، فألقيت يدي نحو الأنبوب معتمداً

على قدميّ الثابتتين فوق سطح الشرفة. وقبل أن أنحني كليّاً، استرقت النظر إلى الطابق الثالث، برغبة ملحّة لأتأكد أنها مازالت تتابعني بعينيها الجاحظتين وتهتم لأمري. لكنها اختفت قبل أن أخاطر وأرسل لها ابتسامة. يا للحماقة. كان ينبغي أن أصدّق ذلك دون الإلحاح على التأكد منه، كإيماننا بوجود الملائكة حولنا دون أن نراهم. فغضبت ورميت بنفسي على طول الأنبوب كي أنجو من هذا المشهد المسرحيّ. وكانت المكافأة بانتظاري، وهي السماح لي باللعب. وهكذا أوكلوا إليّ حراسة المرمى، وأصبحت حارساً منذئذ.

وبعد ذلك اليوم لقبولي بالقرد الشقيّ، لأنني كنت أرتمي بين أقدامهم للإمساك بالكرة والحفاظ على نظافة المرمى. إذ يجدر بالحارس أن يكون بطل المعركة، فهو خط الدفاع الأخير. ولم تسقط مني دمعة واحدة رغم كل الركلات الموجعة على وجهي وساعديّ، بل كنت فخوراً باللعب مع اليافعين الذين يكبرونني بالعمر.

هوت الكرة على الشرفة مرات عديدة، وكنت أستعيدها بأقل من دقيقة واحدة. وأعود إلى المرمى حيث تتجمع بقربه المياه في مستنقع صغير، يكون سطحه صاف عند بداية المباراة فيعكس وجه الفتاة إليّ بينما فريقي يهاجم. لم ألتق بها، ولم أر بقية جسمها، أي ما تحت الوجه الملقى بين اليدين. وفي الأيام المشرقة كانت الشمس تضرب النوافذ، فينعكس وجهها واثباً من زجاج نافذة لأخرى حتى يصل إلى نافذتي التي في الظل. وأبقى أراقبها إلى أن تدمع عيناي من وهج الضوء. علمتُ أنّ التلفاز قد وصل إلى إحدى شقق بنايتنا منذ فترة وجيزة. ويقال إنّه من الممكن رؤية البشر والحيوانات يتحركون، ولكن بلا ألوان. أما أنا فكنت أرى شعر الطفلة الكستنائيّ وثوبها الأخضر ووجهها الذهبيّ بفضل شعاع الشمس.

كنت أذهب إلى المدرسة حيث سجّلتني السيدة التي تبنّتني ولم أعرفها أبداً. فكان ناطور البناية "الدون غايتانو" يرعاني. إذ يجلب إليّ وجبة ساخنة في المساء، وفي الصباح أعيد إليه الصحن نظيفاً فيعطيني كأس حليب دافئ قبل ذهابي إلى المدرسة. كنت أعيش وحيداً في غرفتي الصغيرة، وكان دون غايتانو يمتاز بالصمت لأنه ترعرع يتيماً هو الآخر، ولكن في الميتم. لم يكن حراً مثلي أسكن في البناية وأتجوّل في المدينة.

وكنت متعلقاً بالمدرسة، ويعجبني الإصغاء إلى الأستاذ الذي يتحدث إلى الأطفال، وأتعلّم كل شيء يقوله. فمن الرائع أن يشرح المعلّم الحساب والتاريخ والجغرافيا لتلاميذه. كان العالم ملوناً بطريقة مذهلة، فيعرف الطفل، الذي لم يخرج يوماً من مدينته، أنّ إفريقيا خضراء والقطب الجنوبي أبيض وأستراليا صفراء والمحيطات زرقاء. ومن اللافت أن تكون القارات مؤنثة والبحر مذكّر.

يرتاد الفقراء والآخرون المدرسة نفسها. قبل منتصف النهار، يوزّع الآذن على الفقراء أمثالي مربّى السفرجل والخبز ذا الرائحة الزكية التي تسيّل اللعاب في أفواهنا. أما الآخرون فلا يحصلون على شيء، لأنهم يُحضرون معهم وجبة جاهزة من المنزل. وكان هنالك فرق آخر، فعندما يأتي فصل الربيع يحلق الأطفال الفقراء شعرهم كي لا يصابوا بالقمل، أما الآخرون فيحافظون عليه ما تغيّرت الفصول.

كنا نكتب بالريشة والحبر الموجود في ثقب على كل مقعد. وكانت الكتابة كالرسم، نغمس الريشة في الحبر، ندع قطرات الحبر تتساقط حتى يتبقى منها واحدة نكتب بها كلمة أو اثنتين. ثم نغمس الريشة من جديد. كنا، نحن الفقراء، ننشّف الورقة بزفيرنا الدافئ حتى يرتعش الحبر ويغيّر لونه. أما الآخرون ينشّفون الورقة بمنديل جاف

يمتصّ الحبر. كانت طريقتنا أجمل بكثير، بنفخة هـواء فـوق الـورق المستطيل. أما الآخرون يسحقون الكلمات تحت ذلك المنديل الأبيض.

كان الأولاد يلعبون وسط العصور السالفة. فالمدينة قديمة جداً، منبوشة ومحشوة بالمخابئ والكهوف. وخـلال الظهـيرة في فصـل الصيف، عندما يذهب السكان إلى المنتجعات أو يختبئون في بيـوتهم، كنت أذهب إلى باحة بناية أخرى حيث يوجد بئر عميق مغطىً بقطع خشبية. كنت أضع أذني عليها لأصغي إلى الأصوات، فأسمع هدير ماء تتدفق في الأعماق، ومن يدري كم تبعد عن السطح. لابدّ أنْ توجد حياة موصدة في الأسفل، سجين أو غـول أو سمكـة. ومـن بـين الأخشاب يصعد هواء منعش يمسح عرقي. كنت حراً بشكل فريد في طفولتي، تجتاحني حمى اكتشاف الأسرار ومعرفتها كباقي الأطفـال. ولهذا عدت إلى التمثال، لأرى أين يُفضي الباب السريّ. وكنّـا في شهر أغسطس، وهو الشهر الذي ينمو فيه الأولاد أكثر من أي شهر آخر.

في المرة الأولى أدخلت قدمي بين ساقي الفارس وسـيفه. كـان التمثال للملك روجر النورماندي قبالـة القصـر الملكـي. وكانـت الأخشاب مثبّتة بشدة، فلا تُخلع بسهولة رغم أنها تتحرك. وكنت قد أتيت بملعقة كي أكشط المادة اللاصقة بـين الأخشـاب. فنجحـت بتحريكها، وما رأيت إلا الظلام الدامس. جـاءني الخـوف منتـهزاً وجودي وحيداً. كان الظلام جافاً دون أدنى هدير للمياه. ملّ الخـوف بعدئذ، وحتى الظلام تضاءلت حلكته، فرأيت أدراج سلّمٍ خشبـي لممر يتجه نحو الأسفل. مددت ذراعي لألمس دعائمه، فكانت صـلبة رغم الغبار. غطيّت الممر بالأخشاب ثانية ومضيت. اكتشفت بما فيـه الكفاية يومئذ.

عدت إلى المكان ومعي شمعة. كان بنطالي قصيراً والهواء البارد القادم من حيث الظلام، يداعب ساقيّ المكشوفتين. اكتشفت أنني أنزل في كهف. يوجد فراغ هائل تحت المدينة. الفراغ يرفع المدينة على كتفيه. ثمة ظل عملاق يعادل حشود الناس في الأعلى، هو الظل الذي يحمل جسد المدينة.

أشعلتُ الشمعة عندما وصلت الأرض. فإذا بي داخل مخزن لمهرّبي السجائر الذين كانوا يركبون زوارق صغيرة ويقطعون البحر للحصول على البضائع المهرّبة. شعرت بالخذلان إذ أنّي عثرت على مستودع حين تمنّيتُ اكتشاف كنز ما. لابدّ أن يكون هنالك مدخل آخر، فمن المستحيل أن تعبر هذه الصناديق بين فخذي الملك. وبالفعل رأيت درجاً صخرياً مقابل السلّم الخشبي. كان المكان هادئاً لأنّ الحجر البركاني عازل ويبتلع الضوضاء. وفي إحدى الزوايا ثمة سرير كبير وآخر قابل للطيّ وبعض الكتب من بينها الكتاب المقدّس. وكان هناك مرحاض القرفصاء أيضاً. صعدت حزيناً إذ لم أكتشف شيئاً على الإطلاق.

لم يخطر في بالي أن أخبر الشرطة، ولم أكن لأفعل. فالإخبار عن مخبأ خيانة تشبه فضح الأسرار ولا تليق بطفولة بريئة. ومن المخزي أن يعمل الطفل جاسوساً. بل لم ألغ الفكرة لأنها لم تراودني أصلاً. في ذلك الصيف، كنت أنزل غالباً إلى المخزن لأستريح بين هدوء جدرانه وأنعم بانتعاش رطوبته. وبدأت أقرأ تلك الكتب، مستلقٍ على السلّم الخشبي حيث يدخل القليل من الضوء. وهكذا أدمنت على القراءة، وتعلّمت أن أستمدّ النور من الكتاب أكثر من الضوء. وكلما أنهيت واحداً سارعت لقراءة آخر، مستلقٍ على أعلى السلّم لتتأرجح قدميّ. أول كتاب قرأته كان بعنوان "الفرسان الثلاثة"، مع أنّهم كانوا أربعة. ولم أقرأ الكتاب المقدّس، فالله لم يثر فيّ أي إحساس يذكر.

وفي نـزلة الزقاق الذي كنت أسكن فيه، ثمة محلات تبيع الكتب للطلاب. وتعرض معظمُها الكتب المستعملة في صناديق خشبية على عتبة المحل بسعر زهيد. بدأت أرتاد المكان لآخذ كتاباً وأقـرأه جالساً على الرصيف، فطردني الباعة حتى وجدتُ أحدهم لم يمتعض من وجودي بقربه. إنه "الدون رايموندو" رجل لبيبٌ ورائع. أعطاني كرسياً خشبياً كي لا أجلس على الأرض. ثم عرض عليّ أن يعيرني الكتاب شرط أن لا أعيده تالفاً. فشكرته ووعدته أن أرجعه إليه في اليوم التالي. فسهرت الليل كله حتى أتممت قراءته. وعندما رأى أنني حفظت العهد أخذ يعيرني كتاباً في كل يوم. وكنت أشتهي القراءة في فصل الصيف عندما لا يوجد أستاذ يعلّمنا أشياءً جديدة. وأختار كتباً بأحجام صغيرة لكنها ليست مخصصة للأطفال، فالكثير من الكلمات لم أكن أفهمها حقاً. لكنني أفهم النهاية بالنتيجة. ونهاية الكتاب حميمة كأيّ دعوة للخروج والسهر مع الأصحاب.

وبعد عشرة سنوات، عرفت من دون غايتانو أنّ رجلاً يهودياً كان يختبئ في ذاك المخزن صيف العام 1943. كنت في آخر عام من المدرسة عندما بدأت الألفة تربطني بناطور البناية. في الظهيرة كان يعلّمني لعبة السكوبا[1] بأوراق الشدّة، وكان يفوز دوماً. ولم يكن يصفع الأوراق على الطاولة بعصبية، بل يلعب بخفّة حتى لو كنتُ أخفض من وتيرة اللعب كي أحسب ناتج الأوراق في سرّي. ولكي أعزز الثقة الحديثة بيننا، قررت أن أروي له شيئاً:

---

1 (La Scopa): تعني حرفيّاً (المقشّة)، من قواعدها أن يجني اللاعب أكبر عدد من كروت الكوتشينة، معتمداً على حاصل الرقم سبعة بجمعه من بين الكروت المكشوفة على الطاولة وتلك التي بيديه. وإذا كان لديه سبعة الديناري فيحقّ له أن ينال الأوراق ويقشّها جميعاً. وهذه اللعبة الأكثر شعبية ورواجاً في نابولي، وتشبه (الباصرة) أو (القاشوش) كما تسمّيها العامة في العالم العربي. المترجم.

- يا دون غايتانو. قبل عشرة أعوام، كنت أنــزل إلى المخزن في الصيف.. حيث توجد الصناديق.
- أعرف.
- وكيف عرفت؟
- أنا أعرف كل شيء يحدث هنا. الغبار، أيها الفتى. ثمة الغبار على السلّم الخشبـي وتظهر عليه بصمات اليدين وآثـار الحذاء. وأنت كنت الوحيد الذي بوسعه الدخول من بـين فخذي الملك روجر. لم يلقّبوك بالقرد عبثاً.
- ولكنك لم تقل لِي شيئاً حينها.
- لأنك لم تقل أنت شيئاً. كنت أراقبك وأنت تنـزل. لم تكن تلمس الصناديق و لم تفشِ السرّ لأحد. فما من مشكلة.
- حقاً. لم أمسّ أي صندوق.
- وماذا كنت تفعل هناك؟
- كان الظلام يعجبني، والكتب أيضاً. هنـاك تحـت الأرض أدمنتُ على القراءة.
- قرد بين الكتب.. كنت تتسلق علـى الأنبـوب برشـاقة الفئران، وتلقي بنفسك بين الأقدام لتمسك بالكرة. لديك شجاعة فطرية لا تحسبُ العواقب يا فتى.
- لم يوجّهني أحد على فعل هذا أو ذاك. تعلّمتُ في المدرسـة ما المسموح فعله، لذا أحبّ الذهاب إلى المدرسة. وأشـكر السيدة التي تبنّتني لأنها جعلتني أدرس. هذه السنة الأخـيرة وتنتهي المنحة الدراسية التي ساعدتني بالحصول عليها.
- إنك تستفيد من الآخرين كي تدرس. أنت بضاعة جيـدة يا فتى!

كان تعبير "البضاعة الجيدة" أعظم مجاملة يقدّمها، كأنها مرتبة شرف بالنسبة له. يتابع الإطراء: - لكنك بهيمٌ في لعبة السكوبا!

- عفواً يا دون غايتانو. ما فائدة السلّم خلف التمثال إذا كان المرور من هناك صعباً؟

- بل كان المرور ممكناً. لقد قمت بقطع إحدى ساقي الملك روجر أثناء الحرب، وفي الحالات الطارئة كنا نـزيحها ثم نعيدها إلى محلّها. خلال الحرب كانت المخابئ مفيدة لمن أراد أن يهرّب البضائع والسلاح، ولمن أراد الاختباء أيضاً. وكان الفاشيون يصطادون اليهود، ويدفعون مبلغاً جيداً لمن يُخبر عن مكانهم، وبات المخبرون يتنافسون عليهم لأنّ أعدادهم قليلة في المدينة.

انتبه دون غايتانو لفضولي عن معرفة تلك القصص التي حدثت قبل ولادتي. كان يبرر للأهالي بأنّ الحرب تُخرج أسوأ ما في الإنسان. ولكن إذا باع أحدهم يهودياً للشرطة فهو جاسوس لا محالة ولا يُعفى من القصاص.

- يا للقذارة!.. يهوديٌّ.. وما الضير في هذا؟ هل خُلقوا من مادة مختلفة عنا؟ لم يؤمنوا بالمسيح، وأنا أيضاً لا أؤمن به. إنهم أناس مثلنا، ولدوا وترعرعوا هنا حتى إنهم يتحدثون لهجتنا. لا يشبهون الألمان في شيء. فالأخيرون كانوا متسلطين يقتلون الناس في الشوارع وينهبون المحال ويرتكبون الفظائع، وعندما ثارت المدينة ضدّهم صاروا يركضون هلعاً مثلنا. ولكن ما الذي ارتكبه اليهود بحق الألمان؟ لم يستطع أحد أن يجيب على ذلك. لم يكن أهلنا يعرفون أنّ اليهود شعب موجود منذ القدم. ولكن عندما

تعلّق الموضوع بالفساد وربح المال، صار الجميع يعرف من هو اليهودي. ولو خرجوا من جلودهم أو غيّروا جنسهم لعرفوهم وأخبروا عنهم، لأنّ البعض أوغاد وعملوا كجواسيس مع الأسف.

كان مكتب الاستقبال في بهو البناية المكان الذي يعمل فيه دون غايتانو، وكنا نلعب فيه مباريات الكوتشينة. ويقطع سكان البناية علينا تركيزنا، منهم المارة ومنهم من جاء يستفسر عن شيء أو يسلّم أو يستلم شيئاً ما. وهو كان ناطوراً محنّكاً لا يفوته شيء في بناية عتيقة وفيها عدّة أقسام. وكان يعرف أمور الجميع، إن أتى أحدهم ليستشيره في قضية أو نصيحة، أوصاني بالاهتمام بشؤون الاستقبال ليتحدّثا على انفراد. وعندما يعود يستكمل اللعبة والحديث من حيث انتهينا بالضبط.

- بقي اليهودي مختبئاً حتى وصل الأمريكان، وظلّ متوجساً من أنني قد أبيعه للألمان حتى اللحظة الأخيرة، لأنه قد مرّ بتجربة مشابهة مع أحد النواطير واستطاع أن يهرب مرتدياً بنطالاً وقميصاً لا غير، بلا حذاء. كان يحمل على ظهره كيساً يحتوي على كتب يأخذها معه أينما ذهب. اليهود، من شدة الظلم الذي لحق بهم، اعتادوا على الهرب. نحن معتادون على وجود بركان نشيط فوق رؤوسنا وزلزال مدمّر تحت أقدامنا، لكننا لا نفكّر بحمل الكتب إذا هربنا.
- أما أنا فسأحمل معي الكتب المدرسية في حال هربت من الزلزال.
- وصل إليّ في الليل تحت القصف الجوي. كنت أترك البوابة مفتوحة عنوة، فإذا به يدخل. كان قد نزع قطعة القماش

التي ينبغي أن يخيّطوها على كمّ القميص لتمييزهم. فأخذته إلى ذاك المخبأ وبقي فيه شهراً كاملاً هو الأسوأ خلال تلك الحرب الطويلة. وعندما بدأت الثورة أحضرت لـــه حـــذاء مسروقاً من جندي ألماني، فخرج به إبان التحرير. وســـألني لماذا لم أبعْه.

- وماذا أجبته؟

- وكيف بوسعي أن أجيب على سؤال كهذا؟ كـــان قـــد قضى شهراً تحت الأرض يعدّ الدقائق ويتساءل إن ظـــلّ على قيد الحياة أم لا. كان الشكّ يفوح من كل كلمـــة شكر يقولها لي. وصل الأمريكان إلى كابري[1]، والحـــرب على وشك النهاية. وأن يقع أسيراً في قبضة الألمان قبـــل أيام معدودة من الحرية كان أشدّ ما يثير قلقه. كنـــا في شهر أيلول والطقس حار جداً. والألمان يطوّقون الساحل بالقنابل تحسّباً لهجوم أمريكي بحري، فيفجّرون أجزاء من المدينة بينما يستمر هطول القذائف من السماء. امـــتلأ البحر فجأة بمئات السفن الأمريكية التي تتراكم قادمة من كل الجهات. بالنسبة لنا كانت مسألة حرية، أما بالنسبة لليهودي فمسألة حياة أو موت. وهو الذي اضـــطرّ أن يضع حياته تحت رحمة من قد يخونه أو قد يعتقله النازيون وربما يقتلونه فيبقى دون طعام أو شراب في مخبأه. عندما كان يسمعني أنـــزل السلّم لم يكن يعرف إن كنت أحمل إليه طعامه أم نهايته.

- ماذا أجبته؟ لماذا لم تبعْه للألمان؟

1 جزيرة كابري القريبة من شواطئ نابولي. المترجم.

- لأنني لا أبيع لحم البشر. لأنّ الحرب تُظهر أسوأ ما في الإنسان دون شكّ، لكنها تُظهر أفضل ما عنده أيضاً. لأنه جاءني حافياً فأشفقت عليه. لا أذكر بم أجبته، ربما لم أقدّم له جواباً. في تلك الآونة، كانت القصة تنتهي ولم يعد للأجوبة أهمية. كنت أسمع أفكاره وأجيبه عليها، لكنه لم يكن بوسعه سماع أفكاري. وليس بوسع أحد أن يحاور أفكار الآخرين لأنها خرساء.
- يُشاع أنّك تسمع الأفكار التي تجول في بال الآخرين. هذا صحيح إذن؟
- صحيح وغير صحيح.. أحياناً أنجح وأحياناً أخرى أفشل. وهكذا أفضل لأنّ الناس تخطر في بالهم أفكار شريرة.
- هل بإمكانك أن تخمّن بما أفكّر الآن؟
- لا أيها الفتى. أنا تصلني الأفكار التي تمر ببال المرء مسرعةً كالطير، تلك التي لا يعرف صاحبها نفسه بأنه فكّر بها. إن فكّرت مليّاً بأمر ما، فهذا يبقى في رأسك. أما الفكرة التي أحدّثك عنها تشبه العطسة، تقفز منك إلى الخارج فجأة ودون عمد.

كان يعرف أمور الجميع، مما جعله يتّسم بحزنٍ مستعدٌّ لمواجهة الأسوأ، وابتسامةٍ هشةٍ توارب حزنه أحياناً، وتجاعيدٍ حاصرت عينيه لتنضح بالشقاء.

- هل كان اليهودي يفكّر كثيراً؟
- أجل. لكنه عندما يقرأ يكفّ عن التفكير، ثم يعود إليه ليقضي بقيّة الوقت. يفكّر بالأراضي المقدسة، وبسفينة تحمله إليها. كان يفكّر: "لم تعد أوروبا تحتملنا، انتهت

حياتنا فيها". كان يشبّه شعبه بحزام وُضع على خصر هـــذا العالم: "الكتاب المقدس كالنطاق الذي يشدّ بنطال آدم منذ أن فطن لعريّه. وأراد ابن آدم أن يخلع عنه هذا النطاق أكثر من مرة ويرميه بعيداً لأنه أحسّ بضيقه الشديد". أذكر تلك الفكرة بدقة لأنها تخطر في باله غالباً. عندما خرج إلى الهواء الطلق لم تحمله قدماه. ذهب إلى بيته فوجده محتلاً من عائلة استوطنت فيه وغيّرت قفل الباب علاوة على ذلك. فذهبت إليهم لأحاورهم، وأخرجتهم من المنـــزل. لكنهم أفرغـــوا البيت من كل شيء قبل أن يغادروه. أخذوا حتى الشـــريط الكهربائي بعد أن اقتلعوه من الجدران.

- كيف أقنعتهم بالخروج؟
- كنت أحمل سلاحاً بسبب قتالنا ضد الألمان. ذهبت إلى بيته في الليل، وأطلقت النار على القفل. فدخلت وقلت لهم إني عائد في ظهيرة اليوم التالي ولا أريد أن أرى أحداً. وهذا ما حدث. عاد اليهودي إلى منـــزله، ثم باعه بعد عدة أشـــهر وهجر البلاد.

كنت أصغي إلى دون غايتانو وألعب السكوبا وأخسر. وأســـجّل حكاياته على دفتر ملاحظات في المساء. كانـــت المدينـــة كالمدرســـة بالنسبة لي، ونهاية العام الدراسي تحزنني، على عكس بـــاقي التلاميـــذ الذين يفرحون بقدوم الصيف. فأروّح عن نفسي بكتب دون رايموندو المستعملة التي حصل عليها ممن أراد التخلص منها.

- يقضي أحدهم حياته كلّها وهو يملئ رفوف مكتبته، فيـــأتي ابنه ليرميها بعيداً في لحظة واحدة. فأسأله: وماذا تضـــعون بدل الكتب على الرفوف الفارغة؟ الجبن مثلاً؟ فيجيـــبني:

المهم أن تخلّصني منها.. وتلك الكتب تجسّد حياة من اشتراها ورغباته ونزواته، وسعادته برؤية ثقافته الخاصة تنمو سنتمتراً كل يوم كأنها شجرة.

- دون رايموندو، كيف أردّ دينَك وأنت تجعلني أقرأ دون أن أدفع قرشاً واحداً؟

- لا عليك. فأنت تزيل الغبار عن الكتاب حين تقرأه. عندما تكبر سأبيعك الكتب.

في فصل الصيف كان الجميع يخرجون إلى الساحات لالتقاط الأنفاس في المساء بعد نهار حارّ. وكنت ألعب السكوبا مع دون غايتانو في باحة البناية دون أن أربح جولة واحدة. وفي نهاية اللعبة يقول عبارة أثبتت لي الأيام مقدار حكمتها: "لن نفترق حتى أعلّمك". بل إنه قدرٌ كان لابدّ أن يقع. حتى مدينتي كان عليها أن تعلّمني ثم تتركني أمضي لدربي.

وبعد انتهائنا من اللعب، كنت أعود إلى غرفتي وأثبّت في رأسي ما تعلّمته. كانت فكرة اليهودي عن النطاق فريدةً من نوعها. تأملت نطاقي، لم يكن ضيّقاً، لكنني أرخيته قليلاً. فلا يجدر بالعالم أن يتخلص من النطاق حتى لو شعر بضيقه عليه. إذ ليس بالإمكان العودة إلى الوراء، ما قبل الكتاب المقدّس. كنت قد قرأت في كتاب ما أنّ الناس تحسد اليهود لأنهم الشعب المختار. وفي الحرب العالمية الثانية وقع الاختيار على اليهود ليكونوا الضحية. فلمع سؤال في رأسي: لماذا لم يحمل الرجل الكتب معه عندما استطاع الخروج حراً، بما فيها الكتاب المقدّس؟

- لقد ذكّرته بأنه نسي كيس الكتب. فأجابني بأنه سيتركها لكي تنفع شخصاً آخر. والتوراة؟ فقال لي جملة من الكتاب

نفسه: "خرجت من رحم أمي عارياً وسأعود إلى هناك عارياً". كان يقصد أنّ المخبأ بالنسبة إليه كرحمٍ جديد لولادة ثانية. فعليه أن يخرج منه بلا حقيبة.

- دون غايتانو.. هل كنت تخبّئ قديساً؟

- لم يكن كذلك. بل سمعته مرة يتشاجر مع الله ويقول له إنّ الإيمان به كان بمثابة إدانة، وأنّ الختان يميّزهم ليحملوا التهمة على أجسادهم. "ربنا يأخذ أنفاسنا ويترك لنا الطين". هكذا كان يسمّي الله، 'ربّنا'. لم يكن قديساً، بل رجلاً يعاتب ربّه.

- إذن أنت القديس، لأنك خاطرت بحياتك لتخبّئ رجلاً مجهولاً.

- وهل أنت مضطر لإيجاد قديس؟ ليس للقديسين وجود، ولا حتى للشياطين. يوجد البشر الذين يرتكبون الشرور أكثر من أن يفعلوا الخير. وإنّ كل الأوقات ملائمة لفعل الخير، لكنّ الشر يحتاج لفرصة سانحة، ويجد في الحرب المناسَبة الأفضل لأنها تسمح له بالتفشّي. أما فعل الخير فلا يحتاج إذناً من أحد.

كان البائع المتجول يأتي إلى حيّنا ليبيع الأغراض المستعملة بعربة يجرّها بنفسه. قصير القامة عريض المنكبين، وصوته يبعث الحياة بالأموات. فحين يروّج لبضاعته لا يرضى إلا بإيقاظ الحيّ عن بكرة أبيه، ويطلّ الصغار قبل الكبار من النوافذ. ولهذا كان دون غايتانو يلقّبه بيوم الحساب ممازحاً،.ويخرج إليه مرحبّاً بقدومه، ويعطيه زجاجة ماء يشربها كلّها بين الصرخة والأخرى.

- أما زلت تذكر الحواجز في شارع فوريا يا دون غايتانو؟

كانت هذه الجملة كبطاقته الشخصية. يفتخر دوماً كيف قلب الترام هو وامرأتان في الشارع العام لكي يوقف زحف المدرعات الألمانية. ويضيف: – كم كنا بضاعة جيدة!

ينظر دون غايتانو إلى عربة البائع، فيقدّر أحوال الناس الاقتصادية: – لقد أصبحنا سادة في هذه الأيام. انظر! يتخلّون عن حوض استحمام قديم، ويرمون سرائر الصوف ليستبدلوها بالمطاطية. تترفع أقدامهم عن آلة الخياطة التقليدية ليشتروا تلك الحديثة. يؤمنون بالطاقة الكهربائية كإيمانهم بالحياة الآخرة. تُرى ماذا سيفعلون إن نفدت؟

كان ذلك الصيف غاضباً وبارداً تقريباً. يتزيّن رأس البركان بالألوان في تموز، والناس تلعب اليانصيب، وأرقام الحظّ تخرج بكثرة وبمكافآت قيّمة. ففي العام السابق ربح بائع الأحذية في حارتنا مبلغاً ضخماً. سألت دون غايتانو إن كان يقرأ الأرقام الرابحة كما يفعل بالأفكار، فأجابني بالنفي. وماذا عن أفكار الناس إذن؟

– قبل كل شيء لا تقل الناس.. إنهم أفراد، وعليك أن تركّز هم واحداً واحد. ليس بإمكانك سماع أفكار الناس كلّهم، بل أفكار كل شخص منهم على حدة.

وفي الحقيقة لم أكن أميّز الأشخاص حينئذ، بل كنت أراهم كجمع من الناس. فبدأت أتعرف على سكان البناية في بهو الاستقبال خلال ذلك الصيف. وعندما كنت طفلاً لم يكن يهمني إلا شأن تلك الفتاة التي كانت تعيش خلف زجاج النافذة في الطابق الثالث، ولم أكن أعرف حتى ما اسم أبيها. وبعد أن توارت عن الأنظار لم أعر اهتماماً لمعرفة أحد.

– ألا توجد طريقة أتعلّمها كي أسمع أفكار الأشخاص مثلك؟

- لا، ولن أخبرك بها حتى وإن وُجدت. فسماع ما يجول في بال الآخرين ليس أمراً مستحباً. قد يراودهم سوء فهم وأفكارٌ أخرى تموت قبل أن تتحقق. ولو قلت لأحدهم كيف يفكّر به شخص آخر لنشبت حرب أهلية.
- إذن أنت تسمع ولا تتدخل؟
- أتدخّل في بعض الأحيان. هل تذكر مكافآت اليانصيب في العام الفائت؟ أحد الجيران يعيش في زقاقٍ آخرَ الحيّ حالفه الحظ وربح مبلغاً طائلاً و لم يخبر زوجته. فناديته وقلت له إنّه بوسعه أن يفتح باب بيته بخبر سارّ وليس بذكر الديون والتأفف من المصروف فقط.
- وماذا فعل؟
- اشترى عنزة ونبيذاً وأخبر زوجته بالجائزة.
- ولكن ألم تصادف فكرة سمعتها من أحدهم وكانت مفيدة بالنسبة لك؟

رمقني متجهماً وسألني: - إن وجدتَ محفظة، أتعيدها لمن أضاعها؟

- لا أعلم. لم أتعرض لهذا الموقف يوماً. ولكنني أجيب بنعم دون سابق تجربة. قد أتأكد من إجابتي عندما يحدث ذلك فعلياً. أما الآن فلا أعرف كيف أتصرف.
- كم أنت صادق يا فتى. أنا عندما أجد أنّ فكرة أحدهم قد تكون مفيدة بالنسبة لي لا أضعها في جيبي، بل أتركها هناك. ولا أقول له: عفواً لقد سقطت منك فكرة. بل أتظاهر بأني لم أسمعها.
- حبذا لو سمعتُ أفكار الآخرين.

فقال ضاحكاً: - ولكنك لا تعرف حتى كيف تلعب بـــالورق. تعلّم اللعبة أولاً.

نشأ دون غايتانو بلا عائلة، في ميـــتم، ثم في مدرســـة لتخـــريج القساوسة إذ كان عليه أن يصبح راهباً. ويُقال إنّه أحبّ واحدة مـــن بنات الليل، وخلع قميص الرهبنة. وهاجر إلى الأرجنتين لمدة عشـــرين عاماً، وعاد عام 1940 في زمن الحرب. هذا ما كنت أعرف عنه قبـــل أن نصبح أصدقاء في ذلك الصيف.

- كنتَ مهتماً لأمر تلك الطفلة في الطابق الثالث، وتنظر دائماً إلى تلك الجهة.
- أجل. حاولتُ أن ألفت انتباهها، كما يفعل الأطفال عادة. لكنها اختفت فجأة. هل تعلم أين ذهبت مع عائلتها؟
- أعلم أين توجد الآن. عادت إلى نابولي وارتبطت بشاب من أزلام كامورا[1] وهو الآن في السجن.. مافيوزو أهـــوج. لم تكن الفتاة من نصيبك عموماً.

عادت إلى خاطري تلك الأيام التي عشت فيها وحيـــداً، عنـــدما كنت طفلاً أبحث عن وجهها خلف الزجاج، وأصعد الـــدرج علّـــي أصادفها. ضغطتُ بإصبعيّ على أعلى أنفي كي أقبض علـــى دمعـــتين

---

1 (la Camorra) مصطلح أطلقه زعماء المافيا الخاصة بمدينة نابولي علـــى مؤسستهم السرّية، والتي تعتمد أسلوب الجريمة المنظّمـــة في الاغتيـــالات والسرقات الكبرى. وكان الهدف من إنشائها أن تنال المدينة استقلالها وأن تحافظ على مكانة عائلاتها النبيلة وأن تسعى لإيجاد كيان خاص بنـــابولي يتولى أمور المدينة ولا يقيم أي اعتبار لمرجعية الدولة. ومع الأيام تحولـــت إلى عصابات متناحرة وخطيرة وبالغة التعقيد، تستغلّ الأعراف الســـائدة وارتباطاتها وأزلامها في تجاوز القوانين ونشر الفســـاد بالقتـــل والنـــهب والتسلط على الملكيات العامة والخاصة والتجارة بالمحظورات. توســـعت شبكتها لتشمل إيطاليا، وامتدت إلى أمريكا ودول أخرى أيضاً. المترجم.

سجينتين تحاولان الهرب. حالات الحب التي تُنقش في زمن الطفولة لا تُمحى أبداً. في المساء كتبت جملة دون غايتانو على الدفتر: تعلّم اللعبة أولاً. أي قبل ماذا بالضبط؟ هل كنت سأستطيع قراءة الأفكار بعد تعلّم لعبة السكوبا؟ لم أجرأ على السؤال، فالجملة كانت كافية.

لم يكن أحدٌ يروي القصص لدون غايتانو عندما كان طفلاً في الميتم، فكان يخترعها بنفسه. ويبدع حكايات عن الحيوانات والملوك والمشرّدين، حول نار المدفأة المتواضع في المهجع. فكان الأطفال يدفئون أنفسهم بأنفسهم ويقتلون جوعهم بواسطة آذانهم حينما يصغون إلى قصصه وهو يرويها عليهم باللهجة.

- لهجة نابولي صُمّمت خصّيصاً لأجل الحكاية. إن رويتَ بها شيئاً يصدّقونك على الفور. أما في اللغة الإيطالية فيبقى لديك شكٌّ في ما إذا فهموك أم لا. اللغة الفصيحة مفيدة للكتابة حيث لا حاجة للصوت. ولكن إذا أردت أن تقصّ حدثاً ما فتساعدك اللهجة التي من شأنها أن تبلور القصة وتجعلها واضحة. لهجة نابولي روائية، تثير انتباه الآذان والعيون أيضاً. كنت أروي للأطفال عن الحياة خارج الميتم. لم يكن أحد يأتي إلينا حتى في أيام العطلة. والطفل، إن كبر دون لمسة حنونة، يصبح جلده قاسياً ولا يشعر حتى بالضربات الموجعة. فليس له سوى أذنيه ليتعلم الحياة. كان الكثير من الأطفال يصرخون ولكن لا يبكي أحد. خارج الميتم كان الأطفال يبكون، أما في الداخل فلم يكن أحد يعرف كيف يبكي، حتى لو مات واحد منا. أمر طبيعي.. ترتفع حرارته ويتألم ثم يموت. فتبقى الرغبة في الضحك واللعب. عندما يأتي البرد القارس يتكوم الأطفال على

بعضهم كالأغنام. كنا نتعانق لنصبح جسداً واحداً. ونتبادل فيما بيننا، من يكون على الجوانب يـأتي دوره ليـأتي إلى المنتصف. كنا نخترع الدفء ونضحك كـثيراً. يكفـي أن يصرخ أحدهم: أيها الأغنام! فنتجمع بسرعة ويتكوم بعضنا على بعض...

كانت نوافذ الميتم تطلّ على الفناء فقـط، ولا وجـود لنوافـذ خارجية. أذكر أنّ أحدهم ألقى بنفسه من السطح محاولاً الهرب ومات، لكني كنت الوحيد الذي يستسهل صعود البوابة في الليل لأنني كنـت خفيف الوزن مثلك. فأخرج إلى المدينة وأمتزج بجموع النـاس الـتي تتحرك في الليل، وأذهب إلى الساحل لأنني أحبّ السفن. وعندما بلغت ثلاثة عشر عاماً رافقتُ إحدى الغانيات، وقد كانت في مثل عمـري. كنت أساعدها بمراقبة تحرّكات رجال الشرطة. وعندما ينتهي عملـها وأنا يتوجب عليّ العودة إلى الميتم، كانت تدفع لي ثمن كأس حليـب وكرواسان. كنا نشبه بعضنا، ونتقابل كـأخوين. ثم وجـدتْ شـاباً تزوّجها وانطلقت معه إلى شمال البلاد. نابولي رائعة في الليل، خطـيرة لكنها مفعمة بالحرية. في الليل يخرج الساهرون والفنـانون والمجرمـون والمقامرون. الحانات ومحلات الوجبات السـريعة والمقـاهي لا تغلـق أبوابها. يتعارف الجميع ويطمئن بعضهم على بعض ويعذرون أنفسـهم على عاداتهم السيئة. ضوء النهار يتّهمهم وظلام الليل يبرّئهم. يخـرج الشواذ ورجالٌ يتشبهون بالنساء أيضاً، ولا يـزعجهم أحـد فهـذه طبيعتهم. لا أحد يحاسب أحد في الليل. يخـرج المعوّقـون والعميـان وأصحاب العاهات، إذ يُجبرون على البقاء في البيت خـلال النـهار. المدينة في الليل كالجيب المقلوب. حتى الكلاب الشاردة تنتظر حلـول الليل لتخرج وتبحث عن بقايا الطعام، وكثيرة هي الكلاب التي تعيش

دون فضل الإنسان. المدينة في الليل تبلغ أعلى درجات المدنيّة والانفتاح...

كنت متقدّ الحيوية، أركض في جميع الأماكن لأنهر جوعي. ويُقال إنّ أقدام الذئب هي التي تمنحه قوت يومه وليست أضراسه. أما خلال النهار فكنت أستخدم حيويتي في قصّ الحكايات على الأطفال. لم يكن لأحد اسم هناك، فكنا نخترعها نحن. واحد أسميناه العضاض لأنه بلا أسنان، وآخر يدعى القطار لأنه يصل متأخراً دوماً، وآخر يدعى النعسان لأنه ينام واقفاً، وآخر اسمه البوق لأنه يصرخ كالبائع المتجول. وكانوا يسمونني الجدّ لأنني أكبرهم سناً. الكثير منهم لم يشاهد البحر إطلاقاً فأروي لهم عن البحر: أرجوحة من ماء تلعب فوقها السفن واثبة من موجة لأخرى. أما الموجة فجسّدتها لهم بثني الأغطية. كانت مدرسة الرهبنة الوسيلة الوحيدة المتاحة لنا للدراسة، ولذا دخلت إلى المجمع الخاص بالرهبنة. وكنت أهرب في الليل من هناك أيضاً.

كان الناس في أمسيات الصيف يتنزهون في الشارع المؤدي إلى الساحل ليستنشقوا الهواء المنعش. لم تحن الساعة المتأخرة للمدينة الليلية التي تكلم عنها دون غايتانو، فتلك تبدأ بعد أن تنتهي النزهة. وكنا في الباحة الخالية ننعم بالهواء العليل بعد مباراة السكوبا. يخيّم الصمت علينا فيقطعه بصوت منخفض كي لا يبدّد ذلك الهدوء، ويحدثني عن صيف عام 1943 العنيف.

- لم أفكر في إخفاء أحد عن الأنظار قبل أن أراه حافياً يتأبط كتباً. كنت قد خبّأت هناك شيئاً من بضاعة التهريب وبعض الأسلحة المسروقة من الشرطة. أخذته إلى المخبأ مباشرة. وكنت آتي لأطمئنّ عليه أثناء الغارة الجوية عندما يهرع سكان البناية إلى الملجأ وأظل عنده للحراسة. فكان

اللصوص يتجولون تحت القصف ليسرقوا البيوت، دون خجلٍ أو وجل. أعود إليه خلال الإنذار لأدردش معه قليلاً. كانت الحرب هادئة في الأسفل، وصوت القنابل كالطرق على الباب. فالحجر البركاني يمتص الضوضاء، والاشتباكات تقع دون ارتجاج. بوسع القنابل أن تحفر الأرض لكنها لا تقوى على هزّ تلك الجدران. حقاً إنّ الحجر البركاني مضادّ جويّ.

- وبم كنتما تتحدثان؟
- كنا نلعب السكوبا. علّمته اللعبة فتعلّمها بسرعة، خلافاً عنك إذ لا يهمّك أمرها كثيراً. لم يكن يحتمل الخسارة، وكنت أحترم عناده. تصوّرْ أنّ رجلاً خسر كل شيء ويعيش تحت رحمة أحد لا يعرفه، يستبسل كي لا يخسر لعبة ورق. كان يأخذ أي أمر على محمل الجدّ وكأنه لبس مواطناً من نابولي. فيقول لي: "أنا؟ متى كنت هكذا؟ هنا تحت الأرض أضحك حتى الغثيان، وفي الأعلى تستمرّ الحرب وتُرتكب المجازر بحق أهلي وأشهد انهيار مدينتي التي ولدت فيها. أعيش هنا كمن يلوذ بمدخل بناية ينتظر مرور عاصفة أربكت مشواره ليس إلّا. أتسلّى معك بلعبة الورق وأقرأ الكتاب المقدّس وقصص أنبياءنا وأضحك. نحن في عام 1943 بعد ميلاد المسيح بالنسبة لكم، وفي تقويمنا يصادف عام 5704 وهذا شيء يبعث على الضحك يا دون غايتانو. أنا لست جدّياً بل مأساويّاً، والمأساة نوع من الكوميديا. دعنا نأخذ السكوبا على محمل الجدّ مثلاً فهي لعبة شبه دينية، وأنا واثق من أنها تحمل هذه السمات: الكرت رقم 7

يحتوي على الأهمية المطلقة في اللعبة، وهو الرقم الذي أحدثه اليهود. حيث أعلمنا ربّنا بأنّ عدد الأيام ستة زائد واحد فقمنا باختراع الأسبوع من الرقم سبعة، حيث كان التقويم قبلنا يتبع الشمس أو القمر. نحن قدّسنا الرقم 7 قبل هذه اللعبة. مجموع الكروت أربعون وهو عدد السنوات التي قضيناها تائهين في صحراء سيناء بين الخروج من مصر والدخول إلى أرض الميعاد. خذ أيضاً أنّ من مصلحة اللاعب أن تبقى بعض الأوراق الفردية على الطاولة كي يتسنّى له جمع الرقم سبعة منها، وعلى خصمه بالمقابل أن يعرقل ذلك معتمداً على قوانين الطبيعة التي لا تنسجم إلا مع الزوجيات والثنائيات. وهكذا يتجلّى الصراع بين النظام والفوضى في اللعبة كما بين الخير والشر في الدين. أليس كذلك يا دون غايتانو؟".. كانت القشعريرة تصيبني بسماع تحليله هذا.

- وأنا يقشعرّ بدني أيضاً حين أراك تتذكر كلماته بالتفصيل. عليّ أن أكتب هذا الكلام اليوم كي لا أنساه، أمّا أنت تحفظه عن ظهر قلب بعد مرور أكثر من عشرين عاماً.
- إنها مسألة لعب. كنت أعود من زيارته منتشياً. فوق الأرض كان أيلول 1943 وفي الأسفل كان شهراً من التقويم اليهودي لعام 5704. في الأسفل كان ثمة رجل يأتي من أزمنة غابرة، معاصر لموسى والفراعنة، ومعاصر للنازيين أيضاً لسوء حظه. حمداً للسماء أنني لم أره يضحك في المخبأ. قال لي مرة: "دون غايتانو، أخبرني عندما ترى النجوم في وضح النهار"...

كان شبابنا يسرقون الأسلحة من مخافر الشرطة ويخبئونها، يتنكرون بزيّ الشرطة ويفرّغون المخازن. وحينها كان الألمان ينهبون الكنائس ويفجّرون الجسور كجسر سان روكو الشهير في كابوديمونتي. أزلنا العبوات المتفجرة من حول مبنى الصحة الوطني، وفعلنا الشيء ذاته بأنابيب المياه العامة. أرادوا أن يتركوا المدينة متهالكة ومدمّرة بالكامل. فجاءت الثورة لتنقذ ما بقي موجوداً، لأن الشرّ كان يمتدّ ليفسد الخير. فالشريف صار مرابياً، والفتاة ذات الحسب والنسب تبيع لحمها بأبخس الأثمان، والرجل المهاب والمقدام كان أول الفارّين إلى الملاجئ. أصبح النازيون والفاشيون أكثر عدوانية لأنّ رحى الحرب لا تدور لصالحهم، فالسفن الأمريكية أرست في ساليرنو[1] بنجاح. كانوا يدمّرون المصانع ويسلبون المستودعات ويفرّغونها من كل شيء. وباتت المدينة في آخر أيام أيلول مرعبة بسبب الجوع والأرق القابع على وجوه الناس. ومن يتسنى له الحصول على شيء كان يأكله خلسة. وقام الألمان بمشاهد لا تنسى: يخلعون أبواب محل ما ويأمرون الناس بنهب محتوياته، وبعد أن تتجمع الحشود يطلقون النار في الهواء وعلى البشر. ثم يصورون هذا المشهد ويحفظونه بشريط سينمائي، ويعالجونه في ألمانيا بالتعاون مع البروباغاندا النازية. ويعرضون الفيلم على أنّ الجندي الألماني يتدخل لمنع السرقات والقبض على اللصوص. آهٍ يا فتى. لقد حدثت أمور عجيبة في مثل هذه الأيام الجميلة من أواخر أيلول.

جلسنا على كرسيين خشبيين في الباحة ننظر للأعلى حيث تنتهي المدينة ويبدأ الكون. وكان الكون قريباً من باحةٍ يمكث دون غايتانو في إحدى زواياها، وينظر إلى يديه المتشابكتين ويتنفس بعمق. أثنيتُ رقبتي للخلف ووجهّت نظري إلى الشرفات وما بعدها. الكون يتحرك ببطءٍ

---

1 مدينة ساليرنو الساحلية والمحاذية لمدينة نابولي. المترجم.

شديدٍ في مداره مسبّباً الدوار. عيوننا، التي لا ترى في الأرض أبعد من المدى، قادرة على رؤية الكواكب. ورؤوسنا تكاد تعانق النجوم لأنها أقرب أعضاء أجسادنا إلى السماء.

- كانوا يدكّون منازل المواطنين في كل ليلة، والمدينة في هلع دائم ولا تصرخ كي تحفظ ما بقي لديها من أنفاس. وأصوات القنابل الألمانية تختلط بأصوات الغارات الأمريكية، وصفارة الإنذار تُرسل بعد أن تنطلق المضادات الجوية.

ثم يتذكر حادثة طريفة فيبتسم:

كان هناك شاب يعانق خطيبته قبيل انطلاق صوت الصفارة. لم يكن ليهرب وحده، لكنها لم تستطع الركض بحذائها ذي الكعب العالي. فكان يجرّها بالقوة وهي تصرخ من ورائه: اتركني اتركني!.. إنّ الإناث أشجع من الذكور. الرجال بحاجة للحظات تاريخية كي تنتفض كرامتهم، أما النساء فكرامتهنّ مصانة في الأحوال الطبيعية، إذا سلّمنا أنّ أحوال العام 1943 كانت طبيعية...

كان الناس يخرجون من الملاجئ بعد الغارة الجوية ولا يجدون منازلهم. تتغير وجوه البشر الذين يخسرون كل شيء بغضون ساعة: عجوز يجلس على حطام منزله وينظر للسماء. اقتربت منه فقال لي: "أنظر للسماء علّني أعثر فيها على مكانٍ آوي إليه، فلم أعد أملك شيئاً على الأرض". كانوا يبحثون عن أي شيء ينقذونه بين البيوت المهدّمة. ويفتشون مروراً من غرفة لأخرى عبر الأبواب، حتى لو هبطت كل الجدران. ويذهبون إلى المطبخ ليتفقدوا إن أغلقوا الغاز بإحكام. ثم يرفعون رؤوسهم فيشاهدون السماء بسبب هبوط السقف أيضاً. ولم تكن السماء قريبة من الشرفات كأيامنا هذه يا فتى، ولم تكن تبالي بشيء، تظلّ زرقاء نقية دون ذرة غبار كمنديل مطرّز أنيق. "انزلي

إلى الأرض أيتها السماء. فلنتبادل ما عندنا. خذي كــل شــرورنا إلى البعيد، ومدّدي صفاءك على وسع الأرض". توقّف الأمريكيون عــن القصف، ويبدو أنّ نابولي كانت تنتظر علامة تحجب الســماء. تلبّــد السحاب وانهمرت الأمطار في أواخر أيلول، فاندلعت الثورة...

كان اليهودي يسألني عن الطقس. وكنت أجيبه أنّ الطقس عادي لا تنخفض درجة الحرارة ولا تهطل نقطة مطر واحدة. وكنا في عــوز شديد للماء، فتذهب النساء حتى شاطئ البحــر كــي يعبّــأن الأواني لتنظيف الثياب. ولم يكن اليهودي سعيداً بأنّ الطقس جميل ومعتــدل، بل كان يسألني إن ظهرت نجمة في وضح النهار، ربما ينتظر علامة ما. قال لي: "الناس تحب الأيام المشمسة، أما أنا فأخاف منها. الكوارث لا تحدث إلا تحت سماء صافية، وعندما يتعكّر الجو يؤجل الشرير أفعالــه القذرة. إن تسنّى لي البقاء حتى الخريف سأرقص عارياً تحت وابل مــن المطر". وكانت الحرب ستنتهي مع حلول الخريف مادام أنّ الأمريكان وصلوا إلى ساليرنو. لم أقل له إنهم كانوا على مرمى حجر، فقد يرتكب حماقة ويخرج. كنت أقرأ أفكاره: "الحرية قــاب قوســين أو أدنى ولا أستطيع رؤيتها. وأنا مختبئ تحت الأرض ويرافقني شك بأنه فخٌّ ولــيس ملاذاً. قد يفتحون الباب في أي لحظة وينــزلون إلى هنا ويعتقلــونني". لم يكن يتخيل حتى بتفكيره أنني قد أخونه، ربما ينتبه أحد سكان البناية لوجوده ويُخبر عنه. سألني مراراً إن كان أحدهم يعلم بأمر المخبأ رغم تطميناتي المستمرة. فأقول له: أعلم أنه ليس الوقت المناسب للشــعور بالثقة ولا أجبرك أن تثق بــي. أريدك أن تكف عن هذه الأفكار التي تدفعك للبحث عن مكان أكثر أماناً من هذا، صدّقني لا وجود له الآن. إن خرجت فأنت ميت قولاً واحداً. الجنرال سكول أصدر أمراً باقتياد الرجال ما بين الثامنة عشر والثالثة والــثلاثين عامــاً إلى الثكنــات أو

إعدامهم ميدانياً. كان يأمل بسحب ثلاثين ألف رجلاً، فوصل إليه مئة وعشرون فقط...

أرأيت أي حرب تلك يا فتى! كان يسقط فيها المدنيون أكثر من الجنود. بدأت أسمع الأفكار في الشوارع: "لماذا يبقون داخل المدينة ولا يذهبون للقتال؟ لماذا يظهرون عنترياتهم على الناس البسطاء ولا يذهبون إلى الجبهة؟". أصبحت هذه الأفكار تخص فرداً واحداً.. الشعب. وأي شعور بالرهبة ينتابك عندما ترى الأفراد يتحولون إلى شعب واحد. وهكذا حتى جاء صباح يوم أحد في أواخر أيلول. أمطرت السماء أخيراً وسمعت الكلمة ذاتها تتردد على جميع الأفواه مصدرها فكرة واحدة: "كفى!" كانت كالريح، لا تأتي من جهة البحر بل من قلب المدينة: "كفى! كفى!" عندما كنت أغلق أذنيّ كنت أسمعها بصوت أعلى. انقلبتْ شخصية المدينة رأساً على عقب وعلى حين غرة وبشكل غير مسبوق. "كفى! كفى!" كقرع الطبول فيظهر الفتية مع أسلحتهم. ويخرج الرجال المختبئون تحت الأرض، يصعدون إلى المدينة كأنهم أموات يقومون في يوم الحساب. تمركزت الثورة في مدرسة سانزارو وكان الطلاب من أوائل المنتفضين. وتعالت الصيحات: "اضربوا هؤلاء الأوغاد بالنار". أغلق الشعب الشوارع بالحواجز. كنا نقطع شجر الدلب بالمحاريث ونضعها كمتراس لعرقلة مرور الدبابات. أقمنا حاجزاً في شارع فوريا أدى إلى اصطدام حوالي ثلاثين تراماً. المدينة تفلت من الشرك وتحضّر المصائد. أربع أيام وثلاث ليال في أواخر أيلول، في مثل هذه الأيام تماماً...

نجحت الدبابات الألمانية باقتحام حاجز فوريا، ونزلوا إلى ساحة دانتي متجهين إلى شارع روما حيث تمّ إيقافهم. 'جوزيبي كابانو' 15 عاماً، تدحرج تحت دبابة وعلّق قنبلة يدوية على سلاسلها وخرج

من الخلف قبل الانفجار. 'آسونتا آميترانو' 47 عاماً، اقتلعت صفيحة رخامية من الخزانة ورمتها من الطابق الرابع فعطّلت سبطانة دبابة أخرى. 'لويجي موتولا' 51 عاماً، يعمل في صيانة الصرف الصحي، ظهر من فتحة المجاري حينما كانت الدبابة تمرّ فوقها ففجّرها ببرميل غاز. 'روجيرو سيميرارو' 17 عاماً، طالب في المعهد الموسيقي، فتح باب شرفته وأخذ يعزف المرسيلية على البيانو، تلك المقطوعة الحماسية التي تملئ القلب شجاعة. الخوري 'أنطونيو لاسبينا' 67 عاماً، راح يقرأ المزمور الرابع والتسعين (مزمور الانتقام) عند الحاجز قبالة مصرف نابولي. الحلاق 'سانتو سكابيشي' 37 عاماً، ألقى رغوة الصابون على شبّاك عربة عسكرية فاصطدمت ببوابة محل مغلق. أصبح هدف المواطنين أسهل بغضون ثلاثة أيام، ناهيك عن الزجاجات المشتعلة التي تعطّل العربات العسكرية وتضرم بها النيران. وصرت خبيراً بتجهيزها، وكنت أضع فيها قشر الصابون لتشبّ النيران بشكل أسرع. وأمدّنا صيادو السمك من ضاحية مارجيلينا الساحلية بالديزل، ولم يكونوا قادرين على ركوب البحر بسبب حصار الخليج والألغام البحرية. قام ستة أشخاص فقط، من بين شعب متأهب، بعدة حركات صحيحة لضرب سرية من المدرعات التابعة لجيش عرمرم احتل نصف أوروبا لوحده. ولم تكن المرة الأولى في التاريخ التي ينجح فيها ستة أشخاص بالقيام بأمر خطير كهذا. ففي عام 1799 الجيش الفرنسي، الأقوى في ذلك الزمان، أوقفت تقدّمه انتفاضة شعبية على مداخل هذه المدينة بعد أن انحل الجيش البربوني. ستة أشخاص لهم اسم وكنية وعمر ومهنة، أرغموا الألمان على الجلاء عن نابولي. ستة أشخاص اختارهم القدر عشوائياً لتقويم مجهود شعب قد يرتكب أخطاء خلال اندفاعه. عندما يظهر ستة أشخاص دفعة واحدة يُكتب النصر.

- وأين هو هذا الشعب الآن يا دون غايتانو؟
- لا يزال في مكانه. لم يبرح منه قيد أنملة ولم ينسَ شيئاً. الشعب يقوم بحركته، ثم سرعان ما يتفكك ليعود مجموعة من الأفراد كما كان. ينغمسون في يومياتهم ويتابعون أعمالهم ولكن بمزاج هادئ، لأن الثورة تعدّل مزاج من يقوم بها. كانت معارك اليوم الثالث أكثر دموية، فلابدّ من طرد الفاشيين أيضاً الذين يطلقون النار علينا من الأسطح. أثناء تلك المعارك كنت أنزل إلى المخبأ بصعوبة لأحمل إليه ما يأكله. وفي اليوم الثالث جئت إليه عند الفجر، وقلت له إنه بوسعه الخروج إن لم أعد إليه خلال 24 ساعة. فطلب مني معروفاً: "اذهب إلى شاطئ البحر وارم صخرة في الماء من أجلي". فظننت أنه فقدَ صوابه لبقائه طويلاً في الأسفل. أجبته أنني لم أكن متأكداً من المرور عند الشاطئ والمدينة ثائرة. "إنه أحد طقوسنا. غداً رأس السنة العبرية، نحتفل به في أيلول، ورمي الصخرة في الماء يعبّر عن التحرر من الخطايا. غداً يبدأ عامنا الجديد، وأراد ربّنا أن يكون هذا اليوم هو اليوم ما قبل السعادة". لم يكن قد فقد صوابه إذن. قبل أن أذهب إلى مجلس قيادة الثورة لتلقّي الأوامر، عرجت إلى سانتا لوشيا حيث تأتي النساء لجلب الماء. صعدت على إحدى الصخور الكبيرة ورميت صخرة ثقيلة في البحر. كان رأس السنة اليهودية وعلينا أن نحتفل به نحن أيضاً. وفي ذلك اليوم تحديداً قامت المدينة بأفضل ضربات الحرية. تراجع الألمان القهقرى وباتوا مطاردين ومستهدفين من كل زوايا الأسطح والشوارع. فضربوا آخر قنابلهم من

كابوديمونتي، وسقطت واحدة منها أمام بوابة البناية. فارتمى اليهودي من السرير وأصيب رأسه، وضمّد جراحه بالقميص. رجعت إليه في المساء حاملاً خبر انسحاب الألمان من المدينة، فلم يصدّقني.

- "هل انتصرتم حقاً؟"
- إنه انتصار لكم أيضاً.
- "إنها أول حرب ننتصر بها منذ أيام يهوذا المكابي. ومدينتنا أيضاً أول مرة تنتصر في حرب"
- وهذه المرة الأولى التي تقع بها من السرير وينزف رأسك يا رجل.
- "هل رميت الصخرة في البحر؟"
- طبعاً فهذا عام جديد وحقبة جديدة لنابولي كلها.

داويت جراحه وطهّرتها بزجاجة براندي جلبتها معي لنشرب نخب الانتصار. وشربنا حتى صعدنا السلّم على أربعة أرجل من شدة الثمالة...

في اليوم التالي باتت المدينة محررة. قام الألمان بمحاولة اقتحام ثانية لكن المدينة صدّتهم فتراجعوا. خرج اليهودي مستنداً إليّ وعيناه مغمضتان بلفافة على رأسه كأنه جاء من العالم الآخر. كان حجم الدمار مرعباً. ذهبنا إلى الشاطئ، ورأيت السفن الأمريكية كصخور ناتئة في وسط الخليج. انتعل الحذاء الألماني بحزم وقال: "لن أمشي على أصابع قدميّ مجدداً". مرت أولى الشاحنات بنجمة مرسومة على أغطية المحركات، فقال: "النجوم شاركت في الحرب كما كتب في نشيد ديبورا. هاهي النجوم تلمع في وضح النهار". فطلبت منه أن يخلع العصبة عن عينيه ويقوم بنظرة خاطفة. فنزعها ووضع يده على جبينه

ليرى وصول الحرية. - أنت الآن حرٌّ! وتعانقنا بسرور ناسين أننا في اليوم ما قبل السعادة كنا سنفقدها.

كنت أنظر إلى نافذة الطابق الثالث بينما كان دون غايتانو يتحدث. وددت أن أعلم متى سيحين اليوم ما قبل السعادة بالنسبة لي. و لم أكن أرغب بمجيء السعادة فجأة دون أن أعرف اليوم الذي يسبقها، فاليهود مثلاً يعلمون متى يحين يومها. انشغلت بكتابة قصة دون غايتانو في غرفتي الصغيرة قبل أن أنام.

في الصيف أستيقظ باكراً لأذهب إلى ساحل سانتا لوشيا الصخري، ومعي شبكة صغيرة أصيد بها ما يمرّ به البحر. وأظل ساعتين قبل أن تعتلي الشمس كتف البركان في الجهة المقابلة. وأشاهد خروج السادة من النوادي التي دخلوها لحفلة ليلية. وأراهم بلباس السهرة تحت أضواء الصباح، ومستعجلين ليعودوا إلى بيوتهم كالخفافيش المتأخرة. حتى الكونت، الذي يسكن في بنايتنا، يخرج من النادي صباحاً بعدما قامر بأملاكه على الطاولة الخضراء. لكنه لا يراني لأن السادة لهم رؤية مختلفة عن رؤيتنا التي تسعى جاهدة للإلمام بكل شيء، فهم يرون ما يريدون رؤيته فقط. أرفع بنطالي حتى ركبتيّ وأنزل إلى الصخور المتقاربة. وأضع الشبكة تحت الماء وأنتظر محالفة الحظ في اصطياد ما أحمله إلى البيت، فألصق الشبكة بالصخرة لأسحبها بما فيها. وقبل الرجوع إلى البيت، أمرّ بالدون رايموندو لأعيد كتاباً، فيعطيني آخر من اختياره. إنه بائع كتب مغامر، يجمع الكتب حتى من النفايات. وغالباً ما يُدعى إلى أحد بيوت العزاء التي تود تفريغ مكتبة المتوفى.

- الكتب تحمل البصمات أكثر من الثياب والأحذية. عائلة الفقيد، همّها الوحيد أن تتخلص من ذكراه بأسرع وقت كأنهم يطردون الأرواح الشريرة. ويتذرعون بأنهم بحاجة

للمساحة، فمكتبته تعيق الحركة في المنـــزل. وماذا يضعون محلها على جدران يثقلونها بالصور؟

ويقول لي ما لم يستطع أن يقوله في وجههم. - أعمق فراغ رأيته في حياتي هو فراغ جدار كان يسند مكتبة مباعة. آخذ معـــي كتـــب الفقيد إلى المنفى وأهبها حياة ثانية. وإنّ حياة الكتـــب الثانيـــة هـــي الأفضل، كاليد الثانية في الرسم التي تضع اللمسات الأخيرة.

وكان قد حصل على مكتبة رجل مولع بـــالأدب الأمريكـــي. فقرأت أروع المغامرات الأمريكية حيث هاجر الكثير من أهل نـــابولي إلى هناك، ولكن من الواضح أنهم لا يكتبون شيئاً، فللأدباء الأمريكيين أسماء أمريكية بحتة. ولديهم نظام رياضي في الحياة، مفـــاده أنّ علـــى الإنسان الاعتماد على نفسه. يبدو أن أحداً منهم لا يملك أقارب عـــدا الزوجة، أو أنّ حرفة الكتابة عندهم خصصّت للأيتام.

ذهبت مع دون غايتانو عصراً لنرى كيف يبطلون مفعول قنبلة من زمن الحرب، فكان الكثير من القنابل تقع دون أن تنفجر. وقـــد عثـــر عمّال المرفأ على إحداها عندما كانوا يحفرون حوضاً جديداً. جلسنا في مكان مناسب دبّره الدون غايتانو لأنّ الاقتراب من العمليـــة ممنـــوع. وأكمل حديثه عن أيام الحرية.

- اختفى الفاشيون فجأة ولم نعد نرى قمصـــانهم الســـوداء تجوب الشوارع. ربما وضعوها في الغسالة أكثر من الـــلازم فغدت رمادية. تبرؤوا من تاريخهم الأسود. وأهلنا بســـطاء ينسون الشر حالما يصل القليل من الخير، وهو أمـــر جيـــد طبعاً. صفقّوا بحرارة للأمريكان ثم تابعوا حياتهم، مع أننا كنّا نستحق التصفيق من الأمريكان لأننا وفّرنا علـــيهم طـــرد الألمان. عملت معهم في تفكيك القنابل بعد الحرب. لقـــد

جئت بك إلى هنا لأريك ماذا عملت طوال عـــام كامـــل وبراتب ممتاز. هذه القنابل كانت تسقط بكثرة ولا ينفجـــر إلا القليل منها وتعلق في أماكن متنوعة. عثرنا على بعضـــها حتى في المقابر، تصوّر. في البدء نحفر حولها ثم يأتي الضابط المتخصص بالمتفجرات ليفككها أو ليجعلها تنفجر في أسوأ الأحوال. وكان العمّال يسمّونها ببيض الحرب لأنها تفقـــس فيما بعد. انفجر العديد منها بينما كانوا ينقلون الحطـــام. ضرب أحد العمال الفأس على حجرة فتحركـــت أخـــرى لتضرب الصاعق، فصار أشلاء واختنق زملاؤه من دخانها. ولذا فالحرب لا تنتهي حين تضع أوزارها بل تستمر بسبب البيض المدفون هنا وهناك. إنني أروي عليك هذه الأحداث لأنك في يوم ما، إذا أصبحت رئيساً، وأرادوا منك أن توقّع على قرار حرب، وبينما تخرج القلم لتضع اسمـــك علـــى الورقة، قد تتذكر هذه المآسي بلحظة واحدة وتقول لهم: لا لن أوقّع.. من يدري؟

- أنا أصبح رئيساً؟ كيف وأنا لا أعرف صياغة كلمتين على الأقل؟
- ولم لا؟ إنك تتقن الإصغاء، وهـــو أولى ضـــرورات فـــن الكلام.
- أنت تربكني يا دون غايتانو، فأنا لا أحب قيادة أحد. لكني لن أنس كلماتك. ألم تخَف من العمل وسط القنابل؟
- لو عُرض عليّ هذا العمل اليوم فلن أقبل به. ولكن في تلك الأيام كنا نشعر بواجب مساعدة الناس وإزالـــة أشـــكال الدمار. ولقد خُلقت لعمل كهذا، فأنا ليس لديّ عائلة، ولم

يكن أحد ليحزن عليّ طوال عمره. إنه إحساس يشعرك بالخفّة. كان يعمل معي أرباب عائلة عليهم أن يطعموا أولادهم وأرجلهم ترتعد خوفاً. وفي كل ضربة معول يطلبون العون من الأولياء. واختار بعضهم هذا العمل لأنهم كانوا يجدون أشياء ثمينة بين الركام. وإن وجد أحدهم شيئاً عليه أن يعطيه للمشرف، لأن القانون عسكري: من يعمل لمصالحه الخاصة فسوف يتعرض لعقوبة كبيرة. ومع هذا كان هنالك من يخاطر ويخبّئ الموجودات في مكان ما.

كنا نرى مؤخرة القنبلة من على الشاطئ الصخري، ويوجد رجل يرتدي بزة عسكرية يعمل فيها.

- سوف يبطل مفعولها. من الواضح أنّ الصاعق تعرّض للصدأ. فأثناء عملية التفكيك ثمة خطر من شرارة ما. ذات مرة هوت قنبلة داخل عمود أحد المصاعد مباشرة. ولم يكن بالإمكان تهديم الحائط من حولها، بل ينبغي أن ينزل أحد في المصعد ويفكّكها هناك في الأسفل. فاضطرب المشرف الأمريكي ولم يعرف كيف يتصرف. عرضتُ خدمتي لأنني كنت أعرف الطريقة. وقلت إنني مستعد للأمر إن كافئوني بمبلغ يضاهي أجر المشرف نفسه. فأنزلوني بحبل وفككتها واستخرجتها. وكان هناك هدوء يشبه هدوء المخبأ، وفصل الشتاء لم يعرف طريقه إلى ذاك المكان الدافئ. وكنت محصوراً بين القنبلة وأشرطة المصعد، ورغم ذلك شعرت بالراحة. وكان من صالحي إطالة أمد المهمة لأشعرهم بمدى صعوبتها واستحقاق المكافأة التي طلبتها. فغفوت ملء عيني قرابة الساعتين. وعندما استيقظت فهمت أنهم كانوا

بانتظاري وقد فرّغوا المبنى بأكمله من ساكنيه. شددتُ الحبل فرفعوني بحذر لأنني كنت أحمل الصاعق بين يديّ.

كان الجند يتحرك على ظهر القنبلة، فتذكّرتُ قصة القبطان آهاب على ظهر الحوت موبي ديك. "لا تتشاءم. سوف ينجح" قال دون غايتانو حين سمع أفكاري. ثم رأينا الرجل ينهض ويبتعد حاملاً بيده شيئاً ما، فعدنا إلى البيت. وكان عصر ذلك الأحد في شهر أيلول يدفع الناس للتنزّه عند البحر واستنشاق نسيمه. وبينما كنا نصعد إلى الحي استدرنا لنرى المدينة. كانت حاملة الطائرات الأمريكية ترسو في قلب الخليج، وتعوم مئات الزوارق الشراعية في طوقها، وتحتشد في مساحة ضيقة مستغنية عن هذا البحر الواسع كله. وحكايات دون غايتانو كثيرة أيضاً، ويحملها رأس رجل واحد. إنه يعيش في قعر المدينة، والقصص تسقط عليه كالشلّال. والإنسان حوض لجمع القصص، كلما كان في الأسفل جَمَعَ أكبر عدد منها.

بدأ سكّان البناية يطلبون منه أن يجد له معاوناً. فكلّفني بتسليم البريد والبقاء في البهو ريثما يعود من خدمة إحدى الشقق. فكان تقنياً ماهراً، وخطواته مدروسة وممتعة، ويصلّح أي شيء يقع في عزم يديه الفولاذيتين. ويفي العطل بأدواته المتواضعة وتُحلّ المشكلة.

"يا دون غايتانو، الهواء يجري من تحت النافذة، وأصابني بألم الكلى. ناديت النجار لكنه لم يصل بعد". فتأتي الإجابة كالإسعاف السريع: "لا تقلق، لكل مشكلة حل. أيعقل أن نكفّ عن العطس إذا توفّي صانع المناديل؟ سأصعد إليك حالاً". كانت هناك نسخة أكثر وقاحة: (إذا مات مصلّح المراحيض فلن نستطيع قضاء حاجتنا). لكنه فضّل النسخة المهذبة. أخذ صفحة من جريدة، وبلّلها بالماء ثم أدخلها في فتحة النافذة حيث يتسرب الهواء، فكانت أقوى من الجبْس.

كنت أتفرّغ للدراسة ليلاً، و لم أجد صعوبة في فهم المناهج. أراها كالعلبة، ما أضعه فيها سأجده فيها. و لم أكن أعرف أي فتاة عندما بلغت السبعة عشر عاماً. فالطفلة في الطابق الثالث كانت تسيطر على مخيّلتي وتكبر فيها. وكنت أرى كثيراً من الفتيات في الشارع باحثاً عنها علّني أجدها بينهنّ، فتضاعف الأمل في احتمال لقائها. كانت من أرسلتها إليّ الأقدار، وقد يضيّع القدر السبيل ولا ضمان لحتمية صوابه. بل إنّ القدر نادراً ما ينجح في اتجاهاته. ذات يوم نظرت إلى الطابق الثالث و لم أجدها، فاعتراني ارتخاء تام. وأصبحت أتحدث ببطء، وأتنفس ببطء، وأمشي الهوينى كي لا أسبّب الضجيج محاكاةً لتلك الشبابيك المغلقة. انعدمت الرغبة في اكتشاف الكنز المدفون أيضاً، وكان واضحاً أنّ نافذتها ما يدفعني إلى المغامرة. "كان عليك أن تولد في العصور الوسطى، في عهد الفرسان الضالين" قال دون غايتانو الذي يقرأ الأفكار. فأجبته في سريّ: وهذه أليست عصورٌ وسطى؟ المدينة تحتوي على كل العصور. ساكنو بنايتنا هم من العصور الوسطى سوى أنهم يرتدون أزياء الحاضر. ومازالت نابولي تنتخب الملك روجر النورماندي وليس سافويا[1].

لا يلبث سكان البناية طويلاً حتى يقطعون علينا جلساتنا المسائية. الأرملة في الطابق الثاني وطلباتها الاعتيادية. إذ تنادي دون غايتانو ليصلح شيئاً في بيتها، ويكاد لا يمرّ يوم دون أن يتعطل غرض في ذلك البيت.

---

1 كانت إيطاليا قد انتقلت إلى الحكم الجمهوري قبل الفترة الزمنية التي تدور فيها أحداث الرواية. والإشارة إلى الملك سافويا الذي حكم البلاد في القرن التاسع عشر، وقبله الملك روجر النورماندي في العصور الوسطى، فيها سخرية من تخلّف المجتمع الإيطالي وميله إلى عادات العصور الفائتة أكثر من مواكبته للعصر الراهن، حسب رأي هذه الشخصية الروائية. المترجم.

فيوصيني بأمور الاستقبال ليصعد حاملاً العدة اللازمة. وكانت السيدة جميلة سمراء كلون أوراق الخريف، ترتدي ثوب الحداد دوماً وتتحدث بصوت مبحوح خلف خمارها الأسود. وكانت زيارة الكونت الذي يقامر بممتلكاته في النادي ثابتة يومياً. بقي لديه شقة واحدة، تلك التي يعيش فيها مع زوجته الخياطة الماهرة التي تفصّل الفساتين في البيت بينما يذهب هو للعب القمار. لم يعمل في حياته ولا ليوم واحد.

- لم يزاول أي فرد في عائلتي أية مهنة على الإطلاق يا دون غايتانو. فلماذا أدنّس شرف العائلة؟
- لا قدّر الله.
- وهذا الفتى هل يعرف اللعب؟
- لا. إنه بهيم.
- للأسف. لكنك لاعب محترف، لم ألتق بلاعب بوسعه الصمود ضدك. ولم تشرّفني يوماً بالشراكة في مباراة السكوبا. سوف نربح كل شيء في النادي إذا لعبنا معاً.

من الصعب إقناعه، لكنه يصرّ. - أنا أعوّض الخسائر المحتملة والأرباح نتقاسمها بالنصف. والله لأرتكبنّ مجزرة في النادي. اسمح لي بأن أربح معك.. هيا.

كان دون غايتانو يتهرّب من الدعوة قائلاً إنه لا يرى ارتياده نادٍ للسادة بالأمر المقبول. فيحاول أن يرضيه داعياً الكونت وأصحابه للعب عنده في بهو البناية، وهو على علم باستحالة هذا الأمر. يرفض الكونت الدعوة المعتادة ويلقي التحية ويمضي في شأنه. فيمتلئ الجو برائحة عطر الحلاقة التي تخدش الأنف. ويقول دون غايتانو إنّ النادي عبارة عن حكومة نصابين يخلعون ثياب المغفّلين كالكونت دون أن ينتبه لذلك. "بوسعهم أن ينزعوا جواربك دون خلع حذاءك".

كان دون غايتانو يشتاق إلى الطبيعة التي عرفها في الأرجنتين. السهول حيث تسرح القطعان بحريّة والصواعق ترقص التانغو على مسرح الأرض.

- الحالة الطبيعية هناك أن يكون المرء يتيماً. فالجميع يتامى، البشر والحيوانات فوق سهل شاسع كالمحيط. وهنالك الخارجون عن القانون ورهبان ارتدّوا عن تعاليمهم وفوضويون وايرلنديون الخ. الأرجنتين تخلع سبب السفر من القلب، وتعطي مساحة لتحقيق الرغبات، والعزلة تنظّم الأنفاس في الصدر. هربت إلى هناك دون أن أعرف كيف أوقد ناراً، فعلّمتني الأرجنتين كيف أتعيّش، أي كيف أخيّم وهو أمر يشبه العيش ولكن مع شعور بمرور الوقت. عندما تغيب الشمس يحين موعد الراحة من مسير طويل. ويكون أفضل مكان للتخييم بقرب مياه للخيل وأغصان يابسة للنار...

في البداية كنت في بوينوس آيريس أعلّم اللاتينية لأولاد أغنياء المهاجرين، فتعرفت على ايرلندي يذهب إلى السهول ليرعى الماعز. ثم فارقته أيضاً ونزلت ضيفاً على الطبيعة ورحمتها الواسعة. كنت واحداً، وهو الرقم المفترض لأي حياة ولا ضمان لحفظه. قد يصبح صفراً في كل لحظة وعليّ أن أستغلّ هذه المدة...

في سهول الأرجنتين عرفت النار. رأيتها تشتعل تحت الصواعق وتختبئ متملّقةً تحت المطر الغزير، ثم تنطلق بسرعة مثل الوزغة بين العشب المثني. تُخرج المرءَ عن طوره. تستدير كلفافة مع اتجاه الريح، وتلاحق الحيوانات وتصطاد العصافير في الجو. ورأيت ظهرها البرتقالي يصعد التلال، يسبقها دخانها الأسود كرأس حربة.

عندما كان يتحدث عن الأرجنتين كان يستخدم لغة أخرى وصوتاً ثانياً يخرج من أعمق أعماقه. الكلمات تخرج هادرة عصبية عليه أن يكبح جماحها.

- كنت أقترب من الحرائق لأنها تخلّف صيداً ثميناً، ولأنها تثير اهتمامي أيضاً. يصبح الهواء حولها مراً، وتتصبب جبهتي عرقاً. والحصان يعطس خوفاً، لكنه كان شجاعاً ويتحمل الشدائد. كان الحريق يترك الأرض بالأبيض والأسود، ويلتهم الأخضر والبنيّ والأصفر. ثم أبتعد عن الحريق ليلاً لأجل التخييم، فالنار التي كنت أشعلها تشتمّ الحريق وتدعوه إليها. وأطفئها فجراً وأدوسها حتى آخر ومضة. كانت النار تكرهني لأنني سيّدها وهي لا تحتمل أن تكون عبداً لأحد. إنها سيدة المناورات، تظهر من الجهة المعاكسة على حين غرة، وتتحدى مجرى الرياح أحياناً، وإن شعرتْ بالحصار تزأر كالوحوش.

كانت عيناه تلمع من وقع ذكرياته. وأنا لم أكن أعرف النار، ولدت بعدما أفرغ البركان غضبه في السماء أكثر من الأرض. سمعت أنّ الناس قشّت رماده من على الأسطح بأكياس كثيرة. فالرماد إن تكّدس على السقوف قد يُهبطها.

- ثم رأيت النار في نابولي تشعلها القنابل التي تسقط من الأعلى كالصواعق، لكنها تحرق البيوت والبشر وليس السهول. لم أستطع التعامل معها، لأنها كانت تشبه البشر بانعزالها وندرة مرورها من بيت لآخر. كنت أراها تُشبع رغباتها وتنطفئ دون أن تبتلع الجدران. تحرق أغلفة الكتب فتختفي عناوينها فقط، فالكتاب يحتمل النار إذا

كان سميكاً ومتماسكاً. كانت نيران القذائف من صنع البشر وأحد اختراعات الإنسان. فكنت أقف أنظر إليها بلا رغبة تدفعني لإطفائها. حذار من النار أيها الفتى لأنها تتقن الإغواء، تجذبك إليها مبهوراً وتقذفك عنها مشدوهاً...

نحن هنا لا شيء. نتكوّم على بعضنا في الحارات الضيقة. هناك، عندما كنت أصادف رجلاً إما يكون صديقاً أو مجرماً. الأرجنتين بلاد للمهاجرين، ومن يأتيها هارباً لا ينظر إلى الخلف. كنت أسافر على الحصان مرافقاً الفراشات، إذ تطير الملايين منها على علوّ منخفض تجعلني أركض فوق ظلها. بل كان الظلّ يتحرك كبساط الريح حاملاً معه الفرس والفارس. وقبيل سكون الليل أربط الدابة بساقي إن لم أجد شجرة أو صخرة، فأستيقظ في مكان آخر إذ يجرّني الحصان في بحثه عن العشب. في الأرجنتين تدربت على النسيان. وكلما تعلّمت شيئاً جديداً يُمحى شيء من الحياة القديمة. وبدأت أسمع أفكار الناس حينها. في البدء كنت أسمع أصواتاً، فظننت أنّ الوحدة أثّرت على قواي العقلية. ثم اكتشفت أنها أفكار الآخرين وحاولت جاهداً للحيلولة دون اقترابها من رأسي ولكن عبثاً. قد يستفيد الناطور من هذه الحاسة، تمنحه مفاتيح المنازل كلها ليحرس أسرارها جيداً. وعليه أن يتصرف كأنه لا يعلم شيئاً. ولئن عرف جراح الحزين وآهات المستضعف ونوايا الغدّار إلا أنه ليس بكاهن ليعترفوا عنده فيخفف آلامهم ولا بقديس يغفر الخطايا. إنّ سريرة الإنسان شنيعة للغاية، ولحمه لا يصلح إلا للشواء في جهنم. الطبيعة علّمتني كل هذه الأشياء ثم أعطتني إذناً بالسفر لأشقّ دربي. لابدّ أن تتعرف على الطبيعة كي تصبح رجلاً أيها الفتى.

لم أكن أعرف شيئاً عن الطبيعة ولا عن الجسد. نشـأت قاسياً جائعاً. وكان التفريغ الوحيد في لعبة كرة القدم ظهر السبت وتدريب واحد في الأسبوع. أما البحر فلا أعرف عنه إلا تلك الصخور عند سانتا لوشيا، والطبيعة هي ما ينتهي في الشبكة. في بعض الأحيان كنت أرى الخليج من منعطف أحد الشوارع على الهضبة. كم كان جميلاً وغير ظاهر لمن يعيش بقربه. كنا كالسمك في الشباك والبحر شاسع ورحب من حولنا. وكنت أبذل جهداً في البحث عن زقاقنا بين تلك الأحياء المحشورة فوق بعضها. فلاحظت كيف نعيش هكذا دون أن نعرف كم يتغير الضوء والهواء فوق المدينة ببضعة أمتار. ومن عند الهضبة كانت الطبيعة تتحلى بهلال خصيب يشرف على بركان الفيزوفيو. فالطبيعة موجودة إن رأيتها من البعيد. لذا قرر دون غايتانو أن يصطحبني في يوم العطلة إلى البركان. "لابدّ أن تزور البركان. إنه صاحب الأرض ونحن لسنا إلا نزلاء عنده وعلينا أن نتعرف عليه"

صعدنا بين أزهار الردم ثم على الحجارة الصلبة حتى وصلنا إلى الفوهة. كانت كفم عريض على شكل بحيرة تختفي فيها قطرات الغيوم الناعمة قبل أن تلامس الأرض. وغيوم الصيف تبللنا بندى يرطّب أجسادنا. كان السلام يجول في كيس الضباب مكثّفاً يحشد الدماء. انتبهت أنّ قضيبي ينتصب ما إن استرحنا من الصعود على ظهر البركان. فانزويت متذرعاً بقضاء حاجة، ونزلت في الفوهة خطوات قليلة وتقوقعت على نفسي ضمن الغيوم الكثيفة. وأفرغت رغبتي وقذفتها فوق الرماد الجاف. صاح دون غايتانو كي يدلّني على جهته: "يا فتى، إنّ الطبيعة تمنحك الطهارة عندما تكون وحيداً في إحدى زواياها لتعرف نفسك".. أصبتُ بالدوار، فالغيمة أدخلتني في حمّامها ونفحتني ببخارها الأبيض وأخذتني بين أحضانها. وكنت أرى

الشيء ذاته إن فتحت عينيّ أم أغمضتهما: غشاوة بيضاء على جفنيّ والدم الأبيض الذي انتفض من القضيب. هذا ما حدث لي عندما تعرفت على الطبيعة للمرة الأولى. في السابق كنت قد استيقظت محتلماً غير مرة، ولكن، داخل الغيمة، كان الاستمناء والقذف من صنع يدي. أثناء النزول باغتنا لهيب الشمس فنشّف ثيابنا.

كنت أعود من الساحل ببعض السمك الذي اصطاده بالشبكة. وكان دون غايتانو يقدّر الأمر ويتفنن بطبخ السمك. ويسخر مني: "واليوم أيضاً نأكل سمكة تعيسة الحظ أصيبت بلعنة التسكع عند الشاطئ أثناء وجودك". وفكر أني أحتاج لتجربة بحرية. وكان يعرف صياداً من مارجيلينا انتقل إلى ايسكيا[1]. فاقترح أن أرافقه في يوم الأحد وكان كذلك. صعدت في آخر زورق متجهاً إلى الجزيرة، وكان المهاجرون ينطلقون من المرفأ نفسه بينما كنت ذاهباً في رحلة بحرية. وكنت أبدو كالنازح من أرضه لا يعرف أين يسند يديه فيضعهما على حضنه، مشتّت الذهن بسبب اختلاط الأمور التي تزامنت مع انطلاق الزورق. فمن المدخنة التي تنفث تحت شمس الغروب، إلى اهتزاز المحرك الذي تقشعرّ من صوته الأبدان، إلى نكهة قطعة البيتزا المحشوة بالجبن. حالة كهذه تفصلني للمرة الأولى عن المدينة، وأنا أنظر إلى المسافة التي قطعتها، فلم أفهم إن كان الوداع حزيناً أم سعيداً.

وصلت إلى الجزيرة مساء، وكان الرجل المكتنز قصير القامة بانتظاري عند المرفأ. رفع القبعة عن رأسه وأضحكني عندما رحّب بي: "كم أنت طويل، سوف نبدو كالمهرجين إذا مشينا معاً".

ذهبنا إلى الشاطئ ودفعنا قاربه ورحنا نجدّف في البحر. وكان المساء عليلاً يوسّع المسامات وكنت أتعجب حيثما قلّبت نظري.

---

1 ايسكيا هي جزيرة قريبة من شواطئ مدينة نابولي. المترجم.

فالقمر غائب وضوء النجوم كاف لاكتشاف الأفق عندما اختفت أضواء الجزيرة من ورائنا. والسماء تطفح بالمجرات وتحيطنا من كل جانب. ففي باحة البناية لم أكن أرى هذا الكم من النجوم. لقد تعلمت في المدرسة أنّ الكون طاولة أُعدّت لضيوف يكتشفونه بالتلسكوب. ولكنه كان ممتداً على عينين مجردتين، مزداناً بالعناقيد كأزهار الربيع وممتلئاً ببريق شامات بيضاء ومبعثرة على صفَحات خدٍّ كثيف السمرة. وكنت أرى النجوم على سطح البحر أيضاً وبين المجاديف وفوق قبعة ذاك الصياد الذي لم يكن يكترث لأمرها. أيمكن للإنسان أن يعتاد على هذا المنظر البديع حقاً؟ أيعقل أن يبقى مدّة طويلة تحت النجوم دون أن تهوي واحدة منها على رأسه؟ كانت عيناي تشاهد وتشكر هذا الجمال الكريم.

وعندما صرنا في عرض البحر قال لي: "هيا خذ المجداف". كانت مجاديفه طويلة، فقال: "انتقل إلى مقدمة القارب وقف على قدميك لتدفع جيداً وحدد النظر إلى ذلك الجبل". وانشغل بتحضير شبكة يتخللها الطعُم على أبعاد متساوية. وبعد أن رأيته كيف يحرّك المجداف قلّدته. لم يكن الجهد من نصيب الذراع فحسب، بل على الهيكل العظمي كله أن يتقدم ويتراجع ليرفع المجاديف ويرسلها في الماء. وكان القارب يمضي من تلقاء نفسه بلا اعتماد على الأمواج، فيبدو البحر كأنه على صفيح منحدر. قال لي: "جدّف بهدوء دون أن تتعب نفسك".

جدّفت ساعتين في مياه الليل الراكدة. وكان صوت المجاديف يتألف من مقطعين صوتيين، الأول يحتوي على التشديد عند دخول المجداف في الماء والثاني على التمديد حتى يخرج من الماء. (آنّ – نـا.. آنّ – نا..). جميل أن تلفظ الأنفاس اسم أنثى مع كل ضربة مجداف.

وبعد قليل أعطاني تلك الشبكة لأنـزلها ببطء في البحر وبزغ الفجر حين أنجزنا العمل. ثم أخذ سطح الماء يهتز من حولنا، فإذا بنا نعوم فوق سرب من السردين يحتشد بعضه على بعض ويقفز نفرٌ منه خارج المياه. فأنـزل الشبكة حتى التفّت على الحشد، وأمسك بثلّةٍ منها ووضعها حيّةً في السطل.

ارتفعت الشمس قليلاً فأشعل الفرن الصغير ووضع آلة القهوة القديمة على النار. غسل رأسه بالماء وأعاد القبعة ثانية، وفعلت مثله أيضاً. وصفّرت آلة القهوة من منقارها كالديك. رفع الفنجان صوب الشمس مؤدياً تحية الصباح. وشربنا في عرض البحر قهوةً يفوح منها عطر اليابسة.

كان في وسط البحر حقلٌ يعرفه الصيادون. ويستدلّون عليه بطريقة هندسية، إذ يوجّهون نظرهم إلى جبل سان انجلو حيث تصبح جزيرة فيفارا على شكل ورق الغار فيكون الحقل في ذلك المكان الضيّق من البحر.

بدأنا نتصبب عرقاً بسبب حرارة الشمس وصعودها الثقيل. ولكنها لم تكن تعترض، بل تبارك من يجني قوت يومه بصنارة تعشق اللازوردي. والبحر، الذي يرغبه الجميع، يلتقط أنفاسه. أنـزلنا الصنارة المجهزة بالحلزونات الصغيرة، فحصلنا على سمكة لوط بيضاء ناصعة، ثم اصطدنا سكوربان حمراء وهوجاء. وأخذ البحر القارب بأمواج بطيئة خارج الحقل، فصححتُ المسار بالمجاديف. وانتظرنا قليلاً قبل أن نسحب الشبكة المستندة إلى الطرفين العائمين. سحبها رويداً رويداً بمهارة وخفة ووضعها في السلة. انتبه إلى سمكة أنقليس تسبح تحت القارب فاصطادها بوعاء خشبي. وتتبّع أثر سمكتين كبيرتين فاقتنصهما بكبرياء العائدين من صيد ثمين. وحينها أمرني بالتجديف إلى

جهة معينة عكس التيار، وتبادلنا المهمة حتى وصلنا إلى الشاطئ الـــذي انطلقنا منه حين كانت الأجراس تضرب للصــلاة منتصـــف النـــهار. أعطاني سمكة واحدة وصافحني. فلاحظت أن يديّ تنـــــزفان لعـــدم خبرتي بالتجديف.

وأثناء العودة تمددت لأحظى بقيلولة فوق كراسي القارب الخشبية التي تنبعث منها رائحة الملح والطلاء. أيقظني عامل بحري حين وصلنا. وكنا قد اقتربنا من المدينة كثيراً و لم أشعر بذلك. وبقيت مضطرباً بعض الوقت لا أعرف أين أذهب ولماذا، وعاودني ألم الكفـــيّن. وفي المســـاء طبخ دون غايتانو السمكة الأشهى في العالم مع الطماطم وظلّ يطهوها حتى صار الحسك هشاً.

كان الانتصاب من تحت البنطال غالباً مـــا يـــراودني في فصــــل الصيف. وكان دون غايتانو قد علّمني بعـــض الأعمـــال البســـيطة في الكهربائيات والتمديدات الصحية لأنوب عنه بصيانة عطل ما وأنـــال الإكرامية. فحدث أن أرسلني بدلاً عنه إلى بيت الأرملة بعـــد الظهـــر حيث اعتادت أن تناديه. فصعدت حاملاً العدة اللازمة. وفوجئت أنها ترتدي الخمار الأسود حتى في منـــزلها. وكانت النوافذ مغلقة ليحـــوم الظلّ المنعش في أرجاء الدار. أخذتني إلى الحمّام لأصلح مفرغ المغســـلة فانخفضتُ لأفكّه. ظلّت الأرملة بجانبـــي وكانت ركبتاها العاريتـــان على علوّ جبيني. وبينما كنت أشد القطعة بالمفتاح الانكليزي بـــدأت تداعبني بركبتيها بضربات خفيفة ومحببة. سال اللعاب في فمي. أدخلتْ يدها في شعري لتشدّه فعبثتْ بالتسريحة، فتركتُ العمل، ووقفت على قدميّ. رميت المفتاح الانكليزي على الأرض وطاوعتُها. أطفأتْ الضوء وقرّبتْ بطنها إلى بطني، وأرسلتْ ذراعيها حتى عنقي وشـــدّتْ عليـــه لتدفعني باتجاهها على مهل. فتحتْ فمي بإصبعها ثم بشفتيها. رفعـــتُ

يديّ لأتجاوب معها فأمسكتْ بهما ووضعتْهما على خصرها. ثم راحتْ تبحث عن قضيبي. كانت المغسلة خلفي ولم تنتظرني لأستند إليها، بل اعتلتني فولج قضيبي جسدها. وأخذت تكرّر الحركة ذاتها وتتنفس بشكل تصاعدي حتى وصلنا إلى النشوة ودخل سائلي المنوي في مهبلها أثناء صرختها العليا. لابدّ أنّ هذا ما يسميه الرجال والنساء بممارسة الحب، إذ كان أجمل بكثير من مضاجعة الغيمة.

كنت أتصبب عرقاً وسروالي الداخلي على الأرض وظهري متشنجّ لأنني تحمّلت دفعاتها دون أن أستند إلى المغسلة. ابتعدت عني وأشعلتْ النور. نظّفتْ ما بين فخذيها وقالت لي أن أفعل مثلها. ثم جمعتُ أغراضي. "عندما أحتاج إليك سوف أناديك". "بأمرك سيدتي". كانت هذه أول صيانة قمت بها في البناية.

وبات الأمر أسهل بكثير في المرة الثانية. فلم أعد أدخل إلى الحمّام، بل إلى غرفة النوم مباشرة. تعرّيني وتمددني على الفراش وتصعد فوقي، هي من تقوم بكل الحركات. وصارت مدة الممارسة تطول.

سألني دون غايتانو إن كنت سعيداً بما أفعل، فأومأت برأسي مؤكداً. فقال: "لقد استبدلتني بك". فأجبته أنّ هذا ليس صحيحاً. تابع: "بل هذا صحيح ومنطقي أيضاً. إنها ما تزال شابة وأنا لا أستطيع أن ألبّيها في أي وقت". أما أنا فكنت ألبّيها دوماً. وكان لديها الكثير من الأفكار المجنونة. فترغمني مثلاً على الاختباء في ظلام الغرفة الدامس وتدخل هي لتبحث عني حتى تجدني، فنمارس الحب لساعة تقريباً ثم أنزل. كنت أصعد إليها بعد الظهر وبقينا هكذا حتى مطلع الخريف. فلم تعد تناديني حينما خلعت ملابس الحداد والخمار وخرجت بأبهى ثيابها الملونة. كان دون غايتانو من نصحها بي وأخبرها أنني شخص موثوق وليست النميمة من شيمي.

- كنتَ بحاجة لمعرفة الطبيعة. أما الآن وقد عرفتَها فقد يحدث أن تلتقي بفتاة الطابق الثالث أيضاً.
- وكيف أتعرّف عليها وقد مرّت عشرة أعوام؟ إنه زمن طويل.
- ليس للزمن مساحة يُحسب طولها وقصرها يا فتى. الزمن عبارة عن غابة. وإذا تعرفت على الأوراق اليوم فسوف تعرف الشجرة غداً. وإن رأتها عيناك في الماضي فستجدها في المستقبل، حتى لو مرّت غابة من الزمن.

كنت أتعلم فن الصيانة بسرعة. أراه كيف يصلح شيئاً ما فأعيده بدقة وأتقاضى أجري. وبدأت أفهم بالأنابيب والأشرطة التي تحمل التيار والذي يجب أن يكون مغلقاً في القنوات لتجري بين القواطع والفواصل. كانت القنوات كسكك الحديد وأنا مراقب محطة لتلك التيارات. كنت أتسلّى بالماء والكهرباء. ولكن عندما يُغلق أنبوب الفضلات وأجبر على تفريغ الأوساخ تتحول اللعبة إلى مهمّة مقززة لدرجة أنني تقيأت في المرة الأولى فأعطاني دون غايتانو منديلاً لأضعه على فمي وأنفي.

جاء الخريف حاملاً معه السنة الدراسية الأخيرة. كنت أدرس ليلاً وأقضي الظهيرة مع دون غايتانو في البهو للعب الورق ولمساعدته في الصيانة. وفي أحد الأيام كان المطر الخفيف ينهمر لزجاً من غيوم منخفضة، ولعبنا السكوبا إذ لا شيء نصلحه في البناية. وكنت أجلس وظهري لزجاج المكتب. نهض دون غايتانو ليجيب على شخص ما ينقر بلطف على الزجاج. انتهزت فرصة الانقطاع لأذهب إلى الحمّام. وعندما عدت وجدت دون غايتانو يحادث فتاتين ترتديان البزة المطرية جالستين حول الطاولة. وكانت إحداهما تنظر حولها منعزلة عن

الحديث تماماً، أما الأخرى الشقراء تتكلم مع الناطور بعفوية. بقيت واقفاً حيث كنت.

كانت الشقراء تسأل عن شقة للإيجار في البناية مما اضطر دون غايتانو أن يأخذ وقته ليستفسر فعرض عليهما فنجان قهوة. وافقتا وخلعتا الرداء المطري. فوضعتُ آلة القهوة على النار. وقضت العادة أن لا أنظر في وجه الفتيات كي لا أشعر بالخجل.

- هنا لا نضع إعلانات للإيجار، بل نشيع الخبر. في هذه الآونة لا يوجد لدينا أي شقة شاغرة، لكنّ إحدى الشقق ستفرغ قريباً وتتكون من ثلاث غرف في الطابق الثالث.

كنت واقفاً قرب الفرن أراقب الفتاة التي لم تنبس ببنت شفة حتى اللحظة. أنظر إلى شعرها الكستنائي المسرّح والمربوط بعقدة عند الرقبة. وجّه دون غايتانو ابتسامته إليها: "إنه البيت التي سكنتِ فيه وأنت صغيرة". فرجعتُ خطوة إلى الوراء واصطدمتُ بآلة القهوة لكنها لم تقع. "آنّا" خرج اسمها من فمي، فغطّت الشقراء صوتي لتسأل عن إمكانية رؤية الشقة. استدارت آنّا ببطء حينذاك ونظرت إليّ بعينين واسعتين هادئتين كما كانت خلف زجاج نافذة بيتها. "انتبه إلى القهوة يا فتى، إنها تغلي". فاستدرت وحرّكت الآلة بخفة وأبعدتها عن النار.

- اصعد واسأل المستأجر إن كان بإمكان الفتاتين أن تلقيا نظرة على الشقة.

فخرجت مندهشاً كأنني أمشي أثناء نومي. وبينما كنت أصعد الدرج شعرت أنني أصعد الماضي، وتذكرت كم من مرة اقتربت من باب بيتها علّني أسمع صوتها أو أصادفها وهي تخرج. ولم يحدث أن التقيت بها أبداً. والآن أذهب لأقرع جرس بابها لأحملها إلى البيت نفسه. كان الماضي كالدّرج وأنا أصعد عليه.

عدت لأرى فنجاناً رابعاً ينتظرني وقلت: "بإمكانك مرافقة الآنستين يا دون غايتانو". شربتُ القهوة دون أن أرفع عينيّ عن الفنجان. كان الزجاج الذي يفصل الفتاة عن العالم قد سقط، وبقيت شظاياه على الأرض. وبينما صعدوا إلى الشقة غسلت الفناجين وخرجت من البهو إلى الباحة لأقف تحت المطر. نظرت إلى الأرضية المبللة وتذكرت كم من مرة ارتميت عليها لأمسك بالكرة من بين الأرجل. ثم رفعت نظري إلى الأنبوب الذي يمرّ بمحاذاة شرفة الطابق الأول وكانت أواني الحبق تسكنها حينذاك. ورفعت رأسي أكثر حتى الطابق الثالث. فرأيتها هناك، خلف زجاج النافذة، وتنظر إلى الأسفل أيضاً. فأحنيت رأسي خجلاً وصعد طعم القهوة حتى حلقي مدفوعاً من ألم عند الحجاب الحاجز. فعدت إلى المكتب، ثم إلى الحمّام وتقيأت.

سمعت أصواتهم ينزلون الدرج. كانت الشقراء توصي دون غايتانو بأن يعلِمها عندما ينتهي عقد المستأجر، فهما مستعدتان لاستئجار البيت مباشرة. كانت آنّا تتبعهما وتنظر حولها. ساعدتُ الفتاتين بارتداء البزة المطرية، أرسلتِ الشقراء شعرها خارج الياقة فتراجعتُ خطوة كي لا يلفح شعرُها وجهي. أما آنّا تركتْ شعرها تحت الياقة مقسوماً إلى شقّين. تغلغلت رائحة المطر التي تحيط بها إلى أنفي، وكان الزمن من صاغ لها تلك الرائحة ليقدّمها إليّ. شكرتني على مساعدتي البسيطة وصافحتني. وانتبهتْ إلى كفّي الذي أدماه المجداف فابتسمتْ. كانت تحيّتها كالوعود التي يطلقها الأطفال بأن يتقابلا في اليوم التالي. ثم صافحتْ دون غايتانو وخرجتا بعد انقطاع المطر. التفتُّ إليه أسأله متلهّفاً:

- هل سيسكنان هنا؟

- لا أعتقد. كانتا تودان زيارة المنزل لا أكثر. تحدّثت الشقراء نيابة عن الأخرى كأها محامي دفاع.
- لقد انتظرت رؤيتها زمناً طويلاً حتى نسيت كيف كانت. لقد جعلني الانتظار أنسى ما كنت أنتظره. يا للغرابة. هل يعقل هذا؟
- عندما كنت في الميتم كنت أنتظر اليوم الذي أخرج فيه منه. ثم حان ذلك اليوم و لم أذكر أنني انتظرته.
- لم أكن أتخيّلها جميلة. لكنها مؤدبة ورصينة وتبدو متعبة من السفر. أتعتقد أها ستعود؟
- لا أعتقد. بل أنا متأكد من عودها.

كنت أفكر جداً بما جرى حتى أننا لم نلعب السكوبا. قطعتْ حادثةٌ صغيرة شرودنا حين قدم أحد جباة الضرائب. جاء ليسلّم دعوة مثول أمام المحاسبة القضائية لبائع الأحذية السيد لاكابا، الذي ربح مبلغاً من المال في اليانصيب منذ عام. وكان الموظف جدّياً ويعي واجباته، ولهجته توحي بأنّه من الشمال. لكنه لم يستطع أن يوصل الرسالة للسيد لاكابا. ذهبت لأناديه وقلت له إنّ لديه زيارة في بهو الاستقبال. فأتى وحدث هذا اللقاء الذي كتبته مباشرة على الدفتر.

- هل أنت السيد لاكابا؟
- أجل. في خدمتكم يا سيدي.
- لقد جئت لأسلّمك دعوة مثول أمام القضاء.

تغيّر لون البائع ودعا الجابي للجلوس ليأتي له بكأس ماء. ثم أمسكه وأرغمه على الجلوس قائلاً: - يا ساتر! جئت من الفضاء؟! لابدّ أنّك متعب ومرتبك.

- أي تعب وأي ارتباك؟ ماذا تقول؟ يا سيد لاكابا هذه دعوة للمثول أمام القضاء... القضاء.

قرر البائع أنّ الموظف مرتبك فعليه أن يرتبك. وضع كأس الماء في يده.

- أتسمعني سيد لاكابا؟ دعنا نستغلّ الوقت. أنا قـادم مـن وزارة المالية.
- الغزارة المائية؟ هل أنت عطشان؟ ها قد أعطيتك الماء.
- ما شأن الماء والغزارة؟ أنا موظف في المالية، قسم الضرائب والنفقات.
- آه.. أنت منافق.
- كيف تجرأ على التفوّه بهذه الأوصاف؟

انـزعج الجابـي المسكين ولكنه خاف أيضاً، لأنّ ذراعي لاكابا العملاق أصغر من رافعات الصخر بقليل.

- أرأيت كم أنت مرتبك يا سيدي؟

نهض الموظّف فأجلسه البائع بدفعة واحدة أعادتـه مرغمـاً إلى الكرسي. وظلّ دون غايتانو محافظاً على أعصابه يشاهد المسرحية. كان لاكابا يبرر:

- اسمع يا سيدي المنافق. من يراقب البطاقات في القطار نسمّيه مراقباً، أليس كذلك؟ وأنت تعمل في قسم النفقـات، إذن فأنت منافق.
- التزم حدود الأدب يا سيد لاكابا.
- أنت متوتر جداً مع أنك تبدو سيّداً أنيقاً كأنـك تـأتي إلى عزاء. أليس كذلك يا دون غايتانو؟ حذاؤه أسـود كأنـه ذاهب إلى جنازة.

- لقد تجاوزت حدودك أيها الرجل.

استعد الجابـي للنهوض، فألصقه لاكابا على الكرسـي بدفعـة كأنه يثبّت الجلدة بالحذاء. ففهم أنه في المكان الخاطئ وبدأ ينظر حوله باحثاً عن مخلّص لكن دون غايتانو لم يتدخل.

- سيد لاكابا هل أنت أطرش؟

- أنا أطرش؟! يا عزيزي أنا أسمع ما يتهامس به الـذباب في ساحة البلدية. ربما أنت تتحدث بلغة أجنبية.

- أنا أتحدث اللغة الإيطالية بشكلٍ جديّ.

- أما جدّي أنا فكان يتحدث باللهجة النابوليتانية.

استسلم الموظّف ومسح جبينه بيده والتزم الصمت و لم يجرأ على النهوض.

"هيا اشرب كأس الماء" قال لاكابا بود. فأطاعه المسكين بعيـنين مغمضتين كأنه أمام لجنة عسكرية تنفّذ الحكم. وقبل أن يبكي تـدخّل دون غايتانو أخيراً.

- سأحلّ المشكلة مع الموظف. بوسعك أن تعـود إلى بيتـك يا لاكابا.

- أجل أجل فكّر أنت بالموضوع. فأنا لم أفهم شيئاً من هـذا الأجنبـي.

تسلّم دون غايتانو الدعوة من الجابـي وأطلق سراحه. فقلت له:

- لو انتظرت دقيقة واحدة لأخذنا المسكين إلى المشفى.

- لن يعود إلى هنا ثانية. لكنه كان يستحق لقاء كهـذا مـع لاكابا. فما إن يحالف الحظ أحد الفقراء حتى تأتي الدولـة لتخلّصه إياه. لقد أصاب لاكابا عندما قـال إنّ الجابـي ينتعل حذاء أسود يصلح للذهاب إلى المقبرة.

وانفجرنا من الضحك.

وفي بقية الظهيرة علّمني دون غايتانو كيف أرصّع الشرائط بالخشب وكيف أدهن الشحم لتثبيت الوصلات بين أنابيب المياه. لم أكن أعرف استخدام الآلة التي تقطع الأنابيب وتقوم بالترصيع حينها. فجعلني أجرّب مرتين ونجحت.

- عليّ أن أركّب شبكة مائية يوم الأحد المقبل. إن جئت لمساعدتي سوف ننهي العمل في منتصف النهار وأعطيك نصف الأجر.

- النصف؟ لن أقبل أجراً كبيراً. فأنت الخبير وأنا أساعدك فقط.

- سأعطيك الربع ولن نتناقش ثانية بذلك. اتفقنا؟

واتفقنا. استيقظنا في السابعة صباحاً من يوم الأحد، وأنهينا تركيب الشبكة في منتصف النهار تماماً. وعدت إلى المنزل حوالي الثانية ظهراً فصادفت آنّا أمام بوابة البناية المغلقة. كان دون غايتانو قد أصرّ أن أغسل وجهي ويديّ جيداً، فصافحتها دون أن أوسّخ يدها. "هلّا أدخلتني؟". كانت على عجلة بعض الشيء ولا تكفّ عن النظر حولها. فتحتُ الباب دون ارتجاف لكن قلبي يكاد يطير من مكانه. لم يكن بوسعي أن أدعوها إلى غرفتي الصغيرة التي لا تتسع إلا لشخص واحد. فدخلتُ إلى مكتب الاستقبال حيث كان فيه باب لم أفتحه من قبل وكنت أتوقّع أنه يؤدي إلى الأسفل، لابدّ أنه يُفضي إلى المخبأ. ففتحته واستطعت أن أبتلع ريقي لأقول لها أن تتبعني، وأشعلت شمعة وهممنا بالنزول. كانت تسند يدها إلى كتفي بضغطٍ أفقدني التوازن على الدرج الصخري، وكان سكون الحجر البركاني يبتلع صوت خطواتنا.

وصلنا إلى المخبأ الذي لم أدخله منذ عشرة أعوام. وضعت الشمعة في مكان مرتفع وبقينا واقفين. كانت الشمعة تلقي برذاذ من النور على شعرها وجبينها فتلمع عيناها تجاوباً مع الضوء وأنفاسها هادئة فعلاً. قالت:

- كل شيء في هذه البناية أصغر مما أذكره من طفولتي، عداك أنت.

عبر صوتُها السنين، طار طفولياً وحطّ يافعاً. وعندما نطقت بكلمة "أنت" لمستْ ذراعي وأمسكت بيدي ورفعتْها وأنزلتْها على كتفها بينما التفّ ذراعي الآخر على خصرها تلقائياً كأننا نهمّ بالرقص.

- كنت أتخيل لقاءنا هكذا. أنتَ، تتسلق إلى تلك الشرفة لتراني. أنا أنزل الدرج لأصادفك. كان لديك غرفة صغيرة في برج مرتفع حيث كان يجدر بنا أن نرقص. إنّ رغبات الأطفال تعطي أوامرها إلى المستقبل. والمستقبل خادم بطيء لكنه أمين.

كانت آنا تتحدث بلغة الكتب لا يشوبها أثر اللهجة، وصوتها لطيف كالسطور. توقفت عن الكلام كأنها تنتقل إلى أول السطر، فحان دوري.

- لقد انتظرتك حتى نسيت ماذا أنتظر. يرافقني الانتظار منذ الصباح وأنهض من سريري لأفتح الباب ولا أخرج بل أدع اليوم يدخل.

وضعتُ وجهي على وجهها. - آنا.. لقد مرّ دهر بحاله.

- لقد انتهى الدهر الآن. وسوف يبدأ الزمان الذي يمتد للحظات فقط.

- تمنيت أن تقع الكرة كل يوم على تلك الشرفة المغلقة. كنت أصعد إليها مستمداً القوة من نظراتـــك. وأرمـــي الكـــرة للأولاد من الأعلى لأتخلص من عيونهم. فكان عليّ أن أبلغ وجهك خلف الزجاج وأن نتزوج منذ أن كنـــا صـــغاراً. كيف استطعت أن تتذكري وجهي؟

أبعدتْ صدغها ونظرت إلى ظلّ وجهي. - أنا بحاجة لقبلة كـــي أجيبك.

فسحبتُ نفساً عميقاً وتوجهتُ بشـــفتيّ الجـــافتين إلى شـــفتيها الناعمتين ثم دخلت أنفاسها بأنفاسي. واستعان جسدي بالشفاه ليعوّض انقطاعاً لطيفاً للتنفس.

- هل تشعر بالشيء ذاته؟ القبلة كاللاصق الذي يغلق حواف الرسالة.

وصلتني كلماتها عبر أنفي دون أن أسمع صـــوتها في أذنيّ. هـــل الأفكار تُسمع عن طريق الأنف إذن؟ وهل تسمع آنّا أفكاري؟ فقالت بشفتيها: "أجل".

ولم يحدث شيء آخر واكتفينا بفيض الشفاه وبالأنفاس التي تـــدخل الأنف وتختلط بالأفكار. لقد أوفينا الطفولة حقّها واستجبنا لرغبة الطفلـــين بتبادل القبل والرقص في الغرفة. شعرنا بالتعب معاً فجلسنا على السرير جنباً إلى جنب ينيرنا ضوء الشمعة. فوضعتُها على الأرض لأخفف وهجها.

- عندما أجلس قربك يا آنّا أشعر بالاتحاد بك.

- أنت جزء ضاع مني وعاد اليوم ليلتحم بـــي. إنك أناي.

كان ضوء الشمعة يصعد من بين أقدامنا ليطلي وجهينا بدفئـــه. فقالت:

- هذه ليست شمعة، بل إنها غابة مشتعلة.

وأخذت يدي ووضعتها على حضنها. - انتهى الوقت. فلنطلب تمديده قليلاً.

- فلنبدّل النهاية بالبداية ليظل مفعول القبلة الأخيرة كالأولى.
- إنّ القبلات لا تعدّ يا أناي. ولم تكن هذه بالقبلة الأولى، بل ربما القبلة الثانية بعد ألف قبلة وقبلة مرجوّة. لا وجود للقبلة الأولى، كل القبلات هي الثانية. لقد أعطيتك القبلة الأولى من خلف الزجاج عندما قفزتَ إلى الشرفة. فكنتُ أراك تصعد الحاوية لتراني، وسمحت لك بقبلتي الأولى حينذاك.

أمسكتْ بيدي وضغطتْ أصابعي بين سرّتها وفرجها. - وهذه قبلة ثانية أخرى فالأيدي تتعانق وتتبادل القبل أيضاً.

- لديك جفنان مقوّسان كأشرعة السفن يا آنًا.
- لدي جفنان لا ينامان ولا يبكيان.
- ألا يسقط الدمع منهما؟
- كلا. لا تهوي المرساة منهما أبداً.
- هل الدمع مرساة العيون؟
- أجل. الدمعة تهوي عندما تطأ العين موقعاً. أما مقلتاي فلا تكفّان عن السفر.

تُرى ما الذي يفصل بيننا؟ وما هو الوقت الذي سوف ينتهي بعد لحظات؟ فاصطدم جوابها بفكرتي.

- خطيبي المافيوزو سيخرج بعد فترة وجيزة من السجن. ويريد أن يتزوجني وينطلق إلى أمريكا الجنوبية.
- ليس لي الحق بأن أسألك. لكني أود أن أعرف لماذا لم أكن أراك إلا خلف زجاج النافذة.

فأجابتني وهي تبتعد قليلاً وتثني يديها فوق ركبتيها.

- لقد كنت طفلة منعزلة، أعيش في داخلي فقط. ولم أكن أقدر على البكاء حتى بعد الصفعات. وهذا ما يُعرف بمرض التوحّد اليوم. أنا مجنونة يا أناي. لست إلا فتاة تعطي أوامر للأحلام والرغبات. إنني ملكة خُلقت من دم السحرة وحرائق الساحات، أترى كيف تشتهيني هذه الشمعة؟ لقد أبعدوني من هنا للمعالجة في مستوصف فوق الجبال ولم أر والديّ منذئذ. توفيّا فورثتهما. وخرجت من المستوصف في سنّ الثامنة عشر وعدت إلى هنا ولم أذكر أين كانت البناية. أعيش في فندق وأبحث عن المكان والنافذة منذ حوالي العام. أردت أن أتذكر ما كنت أراه، إلا أنني تذكرت ما لم أسمعه من قبل: أي اسمي عندما نطقتَ به وأنت تحضّر القهوة في مكتب الاستقبال. هذا ما تذكّرته دون أن يكون في ذاكرتي من قبل. إنني مخلوقة من نسج الحرير كالأشجار وأعرف الريح حتى لو كانت بلا هبوب. ثم نظرتُ من خلف زجاج نافذتي ووجدتك ثانية بكل بساطة. وكنتَ كوعاء خزفي نمى حيث تركته. أنت مصنوع من خشب قابل للاشتعال والإبحار.

أصابتني القشعريرة أمام الشمعة. فقالت لي: - هل أنت خائف؟ هيا ارتعدْ يا أناي فالرجفة عربون محبة. ارجف بهدوء. بوسعك أن ترجف هنا وأنت مطمئن.

مرّرت يدها بلمسة منعشة على جبهتي المشتعلة. فسلبتِ الخوف من قلبي بيسرٍ كقطعة قماش تمسح الغبار. وكان الشرار يسقط من فتيل الشمعة فجمعت آنا بعضه وحملته إلى لسانها.

- ما طعم النجوم برأيك؟ حلو أم مالح؟
- لا أعرف. لم أتذوقها أبداً.

- أما أنا فأعرف طعمها لأنني سهرت ليال كثيرة على الشرفة في المستوصف. إنّ النجوم في الصيف تأخذ بالذوبان، فيَصل شررها إلى فمي.
- وما طعمها؟
- طعمها مالح بنكهة اللوز المر.
- إنني أفضّلها حلوة.
- كلا.. قد يُفسد القليلُ منها الأرضَ بأسرها. في بعض الليالي تهب عواصفٌ من نجوم مفتتة وتضع بذرها في الأرض التي تهضمها ولا تستطيع أن تردّها. فتنهض الصلوات من أسفل الأرض لردّ المعروف وتسبّح الحيوانات والأشجار امتناناً.
- هل أنت تصلّين يا آنا؟
- لا.
- لماذا؟
- لأنني جئت من هناك. من بذرة سافرت على صقيع ذيل النيزك.
- وجئت لتولدين هنا بين أكثر حارات العالم ازدحاماً وضيقاً وضجيجاً؟
- أجل. فأذيال النيزك الضائعة تنتهي في فم البركان. بذرتي وقعت في الفوهة التي نفثت عام 1944 عندما غضب البركان وهكذا ولدتُ. إنني أشتمّ مادتي الأصلية بين الأحجار البركانية لهذا المكان.
- وأنا أيضاً. أنا ابن أحجار هذا المكان. لم آتي مثلك من الفضاء بل من باحة بناية مغلقة. كنت أرفع عينيّ إلى

نافذتك أولى عتبات الصعود إلى السماء. وكانت أنفاسي تصعد لتصير ضباباً على زجاج تلك النافذة، فتمسحينه بكمّ القميص. إنني أحب زجاج النوافذ لأنني كنت أراها امتداداً ليديك التي تسند وجهك. وكان زجاج البناية يعكس صورتك حتى تصل إلى غرفتي، تتعاون النوافذ كلها لترسلك إليّ، حتى إذا نقصت واحدة تبدّد وجهك في الهواء. شكراً أيها الزجاج. ولكن ماذا أفعل بالسعادة الآن وقد رأيتك من دون النافذة؟ ماذا أفعل يا آنا؟

- تفعل؟! يا لهذا التفكير الغريب. أتظن أنّ بيننا ما علينا فعله؟ هنا لا وجود للأفعال، توجد أسماءنا ولا شيء آخر. هنا يوجد سرير جاف كالمذبح قبل الأضحية، لم نستلق عليه ولم نتعانق فوقه.
- هل تودين الاستلقاء؟
- ليس الآن يا أناي. هذا السرير يشبه الجرح وعلينا أن نلفّه بشاش. سأجلب الأغطية لاحقاً.

نهضتْ فنهضتُ أيضاً. أخذت يدي ومشت باتجاه السلّم الصخري. فحملتُ الشمعة ولحقتُ بها. وشعرتُ أنّ لي ذيل نورس بدل القدمين، وأني سأطير في الجوّ من هول السعادة. رافقتُها حتى البوابة التي كانت ثقيلة وبحاجة لدفعة قوية. ولم أجرأ على فتحها لنفترق. فدفعتها الفتاة بيد واحدة دون بذل أي مجهود. لقد خرجت طاقةٌ عنيفة ومتماسكة من جسدها النحيل حوّلت البوابة إلى ستار خيمة. التفتت وهمست في أذني تزامناً مع صرير البوابة: "نلتقي الأحد القادم".

بقيت واقفاً خلف البوابة المغلقة. أخذ الطفل حقّه من كل ما فقده في طفولته. حصل على قبلة الفتاة التي تولّع بها حتى الخيال. فلم

أكن أشعر بنقص العائلة، التي يحتاجها أي طفل. لقد كبرت دون أبوين كالكثير من الأولاد في ما بعد الحرب. لم أشعر بالظلم بل بالحرية في توزيع الوقت على الأيام دون ساعة. فكان عندي غرفتي الصغيرة والمدرسة وباحة البناية والحساء التي تحمله إليّ خادمة السيدة التي تبنّتني والتي أنقذتني من الميتم. اخترتُ أن تنقصني الفتاة، أجمل ما في تلك الطفولة، فصارت حياتي كقفص صغير، ونشأتُ على ذكراها. وها هي وبعد عشرة سنوات، تنـزل من الطابق الثالث إلى المخبأ لحفل زفافنا كطفلين. كان الزمان مثل رسالة أُغلقت بقبلة.

آنا كانت مجنونة. وماذا يعني هذا؟ كنت ما أزال متوتراً خلف البوابة حينما وصل دون غايتانو. فقلت له فوراً إنني تغيبت عن المكتب وفتحت باب المخبأ أيضاً إذ لم يكن عندي مكان آوي إليه مع الفتاة.

- حسناً فعلتَ يا فتى. لا بأس عليك.
- دون غايتانو هل كنت تعرف أنها مجنونة؟
- كانوا يعاملونها على هذا الأساس. وهي لم تكن تتحدث أو تتواصل مع أحد. أرسلها أهلها إلى مصحّة لأنهم كانوا يخجلون منها. ولم تخرج من هناك حتى اليوم الذي رأيناها هنا.
- هي تعترف بأنها مجنونة.
- المجانين لا يعرفون أنهم مجانين ولا يستطيعون أن يعترفوا بشيء كهذا.
- فلماذا تقول إنها مجنونة إذن؟

كنا قد دخلنا إلى المكتب وبدأ دون غايتانو يقطّع الخضراوات.

- في عمر الإثارة لا يقوى القلب على احتمال تدفّق الدم. بل يصبح العالم بأسره صغيراً أمام عظمة ما يثور في الصدر.

وعلى المرأة في هذا العمر أن تكبح جماح شهوتها إلى أصغر قياس ممكن. وقد تظنّ أنها تفشل في ذلك عندما تتعرّض لصدمة عاطفية صغيرة، لذا تحتاج إلى ضربة عنيفة. هذه أخطر سنوات المرأة، وقد لا يتمكن الرجال من استيعاب حجم هيجان الأنثى. وإن استطاعت امرأة ما أن تثيرنا، فالمرأة تثار من تلقاء نفسها أي من ذلك اللهيب الذي يجري في عروقها. إنها طاقة وحشية تأتي من البعيد، من كاهنات الأوثان اللواتي كنّ يحرسن النار.

كنت أساعده في تنظيف البطاطا. ولم أحمل كلماته عنها على محمل الجد.

- وما الذي عليّ فعله؟
- عليك أن تقشّر البطاطا بخفّة دون أن ترمي شيئاً منها. قشّرها بحيث تزيل الرقاقة الجافة، كما يفعل المنجر بقطعة الخشب.
- لا لا. ما الذي عليّ فعله مع الفتاة؟
- آه حسناً. عليك أن تلتقي بها، وأن تتعرف عليها أكثر لتستطيع أن تقتلعها من أفكارك. إنها ليست من نصيبك. وليس بوسعك أن تتحرر منها مادمت لا تعرفها.
- لا أرغب بالحرية. بل أرغب أن أبقى وإياها في غرفة موصدة.

رحنا نلعب السكوبا ريثما تنضج الخضروات. وكلّما دنوت من الفوز عليه استطاع أن يبلغ التعادل. كانت السكوبا لعبة تنشر السلام.

ولم ينتصب القضيب تحت البنطال خلال وجودي مع آنا في حين أنه كان متيقظاً دوماً في الصيف بفضل الأرملة الجذابة. لقد رفعت

القبلة دمائي حتى شفتيّ، وشممت رائحة الدم في فمي. وبعد القبلة صرت أشعر بطنينٍ في الأذنين واحتقان في الأنف وظمأ على الشفتين. وكانت حرارتي ترتفع وتنخفض أثناء النهار كالموج، فأشرب كمية من الماء كي أخفف من حالة الجفاف.

كنت أدرس ليلاً كالعادة. وكنت مبهوراً بقواعد اللغة اللاتينية، وكأنّ أحد الملغّزين قد اخترعها فأكتشف الحلول بترجمتها إلى اللغة الإيطالية الكسولة التي استغنت عن الكثير من النحو والصرف اللاتيني الرائع. أما في التاريخ فكنت أملّ من حروب الاستقلال الثلاث، وتثير مقاومة الجنوب دهشتي بتنظيمها لقطع الطرق. وإن كان المنتصرون بحاجة للتشهير بالمهزومين، إلا أنّ الجنوب بقي محبّاً لمن هُزم على أيديه. وعسكرياً كانت تلك الحقبة الأكثر دمويةً من بين المناوشات التي سُمّيت بعهد الوحدة، كالمعارك المضحكة والخاسرة في بلدة كوستوزا. لم أكن أستلطف كافور، وأرى ماتزيني كمؤسس عصابة مسلحة. أما غاريبالدي فقد وصل في لحظة محظوظة من التاريخ على عكس بيزاكاني تماماً[1]. كان التاريخ مطبخاً لمكوّنات معيّنة تتبادل العيار فيما بينها

1 في هذه الفقرة يبرز الحسّ الطفولي لبطل الرواية في رؤيته لأحداث وشخصيات عظمى من التاريخ الإيطالي، كحروب الاستقلال التي نشبت إثر ربيع الشعوب بهدف توحيد البلاد وطرد المحتلين عنها. وخاض خلالها الإيطاليون معارك كثيرة انتصروا في بعضها وهُزموا شرّ هزيمة في أخرى، كمعركة كوستوزا التي خسر فيها الجيش الإيطالي نصف قواته ضد الجيش النمساوي. كافور كان رئيس الوزراء أيامها، ويعود له الفضل الكبير في التخطيط للوحدة والاستقلال. وماتزيني الفيلسوف الأكبر للوحدة، كانت كتاباته الحادّة تحرّض على حمل السلاح لنيل الحرية والكرامة الوطنية. غاريبالدي الجنرال الذي نجح بتوحيد البلاد كلها بألف مقاتل فقط. أما بيزاكاني فكان يملك مقوّمات عسكرية تعادل قدرات غاريبالدي، لكنّ التبدلات السياسية لم تجرِ لصالحه. المترجم.

لنحصل على وجبة مختلفة بالمجمل في كل مرة. ولم أستطع ممارسة التسلية ذاتها مع الفيزياء والكيمياء. فقد توزعت الذرّات في العالم منذ أمد بعيد وبطريقة مسالمة، لكنها مرّت بحقبة صراع بين الأوكسجين والهيدروجين قبل أن يصلا إلى تفاهم عبر صيغة الماء. فالماء اتفاقية سلام إذن. والكيمياء دراسة التوازن الحاصل بين المواد المكونة للعالم.

لم تكن علاقتي مع الرفاق وثيقة. كنت أساعد بعضهم في الوظائف داخل الحصة، ولكن دون مبادرة مني. وكنت أتكلم مع الأساتذة عندما يسألونني فقط. أما في ظهيرة السبت كنت مدعّواً لمباراة كرة القدم. وعلى الحارس أن يمتلك وجهة نظر، وأن يتوقع الضربة ويستبقها بتحديد وضعية مناسبة. وإذا كان عند أطراف المرمى فعليه أن يعتمد على ثني ساقيه ليقفز جيداً في الهواء. يمتاز باستخدام يديه لكنه يدفع ثمن هذه الميزة غالياً. وأنا كنت أمتاز بشجاعة إضافية تجعلني أدفع الثمن أضعافاً. وكنت فخوراً لأنهم أوكلوا إليّ وظيفة الدفاع الأكثر شرفاً. فالفشل يكمن في أن يسجّل الخصم هدفاً حتى لو فزنا المباراة. لا وجود لركلات مستحيلة إنما هي أخطاء في وضعية الحارس قبل الركلة. وكنت أصدّ ضربات الجزاء بما فيها ركلات القدم اليسرى لأنني كنت أستخدمها. ومن الصعب التنبؤ بجميع ضربات اللاعبين الذين يركلون بالقدم اليسرى، ففيها وحي لا يتعلق بالدماغ بل بالقدم نفسها.

كانت علاقاتي بين المدرسة والملعب جدلية. فكنت أطرح الكرة والأسئلة في المكانين. وكنت أتحلّى بالقليل من الصفة الفنية أنا أيضاً، دون التطرق إلى مبالغات آنّا. تلك الفتاة بإمكانها أن تعيش داخل حصن منيع وتقاوم شتّى أنواع الحصار.

لم يكن دون غايتانو يستفيد من ميزة قراءة الأفكار عندما يحالفني الحظ في لعبة السكوبا وأكاد أغلبه. بل كان يحسب كل الاحتمالات

على الأوراق المكشوفة ويستعيد توازنه معوّضاً الفرص السابقة. فيأتي الكونت ويدعو نفسه إلى طاولتنا، ويحاول أن يستلطفه كي يشرّفه باللعب معه. ويدعوني لمباراة طويلة علّه يصل بالتصفيات إلى مبارزة دون غايتانو. فأغلبه بدوري ويستشيط غضباً ويشتم الحظ والأوراق ويمضي ملقياً التحية على الناطور فقط. وبينما نقوم بفتح الشبابيك والباب على مصراعيه كي يختفي عطر الحلاقة يقول دون غايتانو: "من الطبيعي أن يخسر هذا المغفّل وهو حبيس تلك الرائحة الثاقبة".

وبين الحين والآخر يردد دون غايتانو أنشودة تعلّمها من فلاح إيطالي شاركه العنبر على ظهر السفينة التي أقلّته إلى الأرجنتين. *"اريد الذهاب بعيداً بعيداً، حيث لا تجد الرياح لي أثراً، ولا حتى الشمس التي تسطع فوق كل مكان"*.

كان يشتاق إلى الرحلة على سطح المحيط أكثر من كل أعوامه العشرين التي قضاها في الأرجنتين. فتلك الرحلة أشبعت رغبات طفلٍ يقفز من على بوابة الميتم ليذهب إلى الشاطئ ويرى السفن المضيئة ترسو في الخليج.

- إنّ السفر الحقيقي يتجلى في البحر على ظهر السفينة، وليس القطار إلا وسيلة نقل. من شروط الرحلة أن يكون الأفق فارغاً لا يفصل البحر عن السماء، فتشعر بوزن الرحابة حينها. وليس حبّ المغامرة وحده ما يدفع الناس لركوب البحر. فكنت أجد بعض الرجال يبكون حسرة على هجرة الأحباب، حتى لو كانوا مرغمين على الهرب من ملمّة كبرى. ودفع الفقر بعضهم الآخر ليجمع ثمن البطاقة من توفير العائلة بأسرها التي تتمنى أن يُوفّق ابنها في المجهول ليعود إليها بذلك المال وأكثر. كان استثماراً غريباً من

نوعه، فمن الصعب أن يشارك المرء القدر في رسم مستقبله. وكنت أقول لمن يبكي إنه يضيف مياهاً مالحة على المحيط فيزيد كميته ويطيل من أمد الرحلة، فالهدف من السفر أن ننسى نقطة الانطلاق. وتستمر الرحلة قرابة الشهر، وفي النهاية يصل الرحال مستعدين لمواجهة الغربة بعد أن تعلمّوا الصبر والجلَد أثناء الرحلة.

كُسر أنفي في ظهيرة يوم السبت. ارتميت بين الأقدام لأمسك بالكرة حينما تراجع أحد اللاعبين من الجهة نفسها فركل وجهي بقوة دون عمد. صفّر الحكم لاحتساب الخطأ، وضعت يدي على أنفي فإذ به معوّجاً بشدة. لابدّ أن يكون المنظر مرعباً. كان أحد طلاب الطب يلعب معنا، فمسك أنفي وعدلّه بحركة قاسية وحازمة. لقد انحرف الغضروف عن موضعه فأعاده إلى مكانه الصحيح، وقال إنّ هناك عظمة كُسرت بالتأكيد. أبدلوني لأضع قطع الثلج على أنفي كي تخفف من نزيف الدم. فجاء اللاعب الذي أصابني ليعتذر مني. تذكرت جملة من حكايات دون غايتانو فأجبته: "لا عليك. إنها أشياء تحدث في اليوم ما قبل السعادة". ومضى في شأنه يهزّ رأسه وأنا عدت إلى البيت بعينين منتفختين وقد احمرّ ما حولهما. فوضع دون غايتانو على وجهي كمّادات من ماء وملح.

نمت مسترخياً بين أفكار مشتتة، واستيقظت ولم يحن الفجر بعد. لم يكن أنفي يشتمّ أي شيء، فالدم المختّر يعزل عنه الحسّ. ولم أرغب بالظهور بأنف كهذا أمام آنا. فأدرت محرمة صحية حول رأس القلم وحاولت أن أفتح ثقباً في منخاري. كان الألم يعصر دموعي. جرّبت بالماء الساخن أن أذوّب ذلك الدم، فإذ به يخرج ورديّ اللون. أهذا هو ماء الورد؟.. كنت أتناسى الألم بالتفكير في آنا، وأنفخ في منخاري

لكن النفخة تعود إلى الحلق. وبعد عدة مرات سال الاحتقان دفعة واحدة ونزف الدم مجدداً. وبدأت أشتمّ القليل من الروائح، فأردت اشتمام رائحة شعرها الكستنائي. ورحت أبلل منخاري بماء ساخن كي أمنع الاحتقان من حين لآخر في النهار، حيث كنت أساعد دون غايتانو على تركيب جهاز الكتروني حديث يوصل كل الأشرطة بقناة صغيرة.

- كأنني أنظّف المداخن يا دون غايتانو.
- دع هذا الأنف المسكين بسلام.
- من واجبي كحارس مرمى أن أحافظ على يديّ أكثر من وجهي.

وعندما أنجزنا العمل تناولنا حساء الخضار، وذهلت أنني أشتمّ رائحة الدم فيه. فأكلت الخبز مع الزيتون وأصرّ دون غايتانو على أن أشرب كأساً من النبيذ: "النبيذ سوف يعوّض الدم الذي خسرته". كان يخرج مع بعض أصحابه إلى الحانة مساء. وفي العودة يسند أحدَهم عندما يتجاوز حدوده في الشرب.

- في سهرة الأمس، تقيأ صديقي لتر النبيذ في الشارع. تباً، إنهم يشربون دون أن يأكلوا شيئاً. ليس لديهم ما يكفي من النقود فيكتفون بطلب النبيذ فقط. اعتذر مني فتأسّفتُ لأنه بات جائعاً أكثر من ذي قبل. إنّ الحانة أفضل من المسرح، وعلى كل طاولة ثمة مسرحية كوميدية. لا وجود للتراجيديا، فمن لديه هموم كبيرة لا يذهب إلى الحانة.

وبعد الأكل لبس معطفه وخرج قائلاً إنه سيعود في وقت متأخر. وأوصاني بإغلاق المكتب بعد أن أنهي أموري على أن نلتقي في الغد.

حلّ سكون يوم الأحد على أذنيّ بعد أن أغلق البوابة. فوضعت كفيّ الباردتين عليهما، ورحت أسحب الهواء بأنفي حتى شعرت بمروره. ثم بللت المنخارين بماء فاتر فخرج ماء الورد ثانية.

لم أحزن على كسر أنفي في اليوم ما قبل السعادة. فأنا كنت أحرس المرمى وأتحمل مسئولية الفريق برمّته. في اليوم ما قبل الحرية، كان دون غايتانو ذاهباً ليناضل مع بقية أهل نابولي، ولم يغلق الباب على نفسه وينتظر. بل فعل ما يتوجب فعله، مثلي تماماً. وكان يفضّل أن تجده الحرية شهيداً في اليوم اللاحق على أن تجده مختبأ. وإن كان واجبٌ على المرء أن ينتزع حريته ويدافع عنها، إلا أنّ السعادة أمر مختلف. إنها هدية، ولا تتعلق بأن يكون المرء حارساً ماهراً يصدّ حتى ركلات الجزاء. السعادة! كيف كنت أسمح لنفسي أن أسمّيها دون أن أتعرّف عليها؟ كانت تلك الكلمة تمتزج بالعار في فمي، كأن يتباهى أحدهم بمعرفة شخصية مشهورة فيلفظ الاسم الأول وليس اسم الشهرة. فيقول مارشيللو ليقصد ماسترويايي مثلاً.

كنت أعرف عن السعادة اسمها فقط. فأين أبحث عنها إن لم تأت إليّ بنفسها؟ ليس عليّ أن أثق بكل شيء. وعندما تصل هذه السعادة المشهورة بوسعي أن أعرّفها. أبعدتُ يديّ عن أذني بعد أن أدفأتْها الأفكار. واخترق الهدوءَ صوتُ مذياع ينطلق من إحدى الشرفات وقرقعةُ الصحون من شرفة أخرى. تذكرت أن أجلي الأطباق ففعلت وخرجت إلى الباحة. رأيت الغيوم تتراكض في الأعلى، وكان الشارع مبللاً بقطرات المطر. هبت الريح وأججت فيّ الحنين ليوم كان يتلاشى. وتخيلت الغروب. الشمس تهبط إلى الأرض خلف التلال تجرّ وراءها غيوماً مطاولة ومكبّلة بالأغلال. شعرتُ بالحزن فخرجت إلى الشارع. ولم يكن لديّ ساعة لانتظار آنا، لكنّ السعادة كانت تدنو على كلّ حال.

لم يكن عليّ أن أسمّي ذلك اليوم قبل أن يحين الموعد. وربما يكون يوماً اعتيادياً يحمل في طياته أموراً ضرورية كدراسة اللغة الإغريقيـــة. لكني لا أستلطف أفلاطون. كيف استطاع أن يكتب حوارات سقراط كلها؟ هل سجّل ملاحظاته في المساء كما أفعل بحكايات دون غايتانو، أم أنه كان يحفظها عن ظهر قلب؟ أفلاطون كان محتالاً، يقوّل أســـتاذه والآخرين وجهة نظره الخاصة، وكان ظلّه يختبئ خلفهم. أهكذا يفعل الكاتب أيضاً؟ كلا. بل على الكاتب أن يكون أصغر من المـــادة الـــتي يرويها، وأن يجعل القصة تبدو كأنها تفلت منه إلى جميع الاتجاهات وأنه يحاول جمع ما استطاع منها. فيشعر القارئ بلذة التفاصيل الضائعة التي سقطت من أيدي الكاتب سهواً. أما أفلاطون يأسر التـــاريخ خلـــف الأسوار ولا يسمح لأي حياة مستقلة أن تهرب منه. فباتـــت محادثاتـــه رتيبة تقتصر على ثنائية السؤال والجواب فقط.

استوحيتُ هذه الفكرة عندما رأيت طـــلاب المدرســـة الحربيـــة يخرجون اثنين اثنين. كانوا شباناً بعمري يرتـــدون لباســـاً عســـكرياً. وكانت آنا تصعد عكسهم من سانتا لوشيا برأس مرفوع ومشية رشيقة لتكسر رتابة الثنائيات. وتمرّ من بينهم فيتيح الشابان لها الطريق. كانت ترتدي فستاناً ضيقاً مزركشاً بأزهار على أطرافه يصلح لسهرة خريفية، وحذاءً بكعب مرتفع يجعل جسمها ممشوقاً. وتحمل في يـــدها كيســـاً وشعرها المنسدل يتبع موجة خطواتها. فنفختُ في أنفي لأشتمّ عطرهـــا من بعيد. وكان المساء يهبط والمنارة تهلّل بالنور، فابتسم وجهها المزدان بالطيب في وجهي. "أدخلني.. هيا" قالت ونظرت خلفهـــا. فـــدخلنا بسرعة من البوابة إلى بهو الاستقبال، ونبضات قلبـــي تضرب رأســـي بعنف، وألم أنفي يقرع كـــالنواقيس. فتحـــتْ الكـــيس في المكتـــب وأخرجت منه أغطية للسرير. وأمسكت وجهي بيـــديها ثم هـــاجمتني

بشفتيها الأحمرين على شفتيّ وأخذت تتنفس بعمق. كان ذلـك الألم مميزاً، له نكهة المرارة في العينين وذوبان الشوكولا في الفم. انتبهت إلى التهاب الأنف حينها: "ما الذي حدث؟" فأخبرتها بما جرى البارحة ولم تسألني عن أي شيء آخر. "أتيتُ بأغطية للسرير" وانطلقتْ باتجاه باب المخبأ. فأشعلتُ الشمعة وأغلقنا المدينة من خلفنا. ونـزلنا إلى حيث ليس بوسع أحد أن يلحق بنا.

كانت تمشي خلفي وتشدّ يدها حول عنقي، وتصدر طاقةٌ من جسدها أعنف من القبلة. وضعتُ الشمعة على الأرض عندما وصلنا، وراحت تجهّز السرير بطريقة غريبة كأنها تعطي أمراً للأشياء فتنصاع تلك لتنفيذها. ما إن نفضت الغطاء في الهواء حتى تمدد على السرير من تلقاء نفسه. اقتربت مني وبدأت تعرّيني. وشعرتُ بالمعطف ينـزاح لوحده وأزرار القميص تُفتح بلمسة منها، ثم نـزعتْ عني القميص بحركة سريعة هزتّ لهيب الشمعة. وضعتْ أذنها على صدري المتوتر، وشدت خصري بذراعيها حتى ضاق نفسي.

- على رسلك يا آنا، أنت تخنقينني.
- اصمت. إنني أسمع الهواء يملئ دمك.

فكّت نطاقي فوقع بنطالي لوحده لأنني كنت نحيلاً. ودفعتني إلى السرير وجرّدتني من حذائي وجواربي. أصبحت عارياً فأدخلتني تحت الغطاء. لم تنـزع عنها شيئاً ولا حتى الحذاء، ودخلتْ تحت الغطاء رغم ذلك.

كنت محاصراً بين الجدار وبينها. تمددت فوقي فلامس نهداها المتكوّران صدري، وعانقتني بذراعيها وساقيها حتى طوّقتني. ولم أكن أستطيع التنفس أو التحرك مع أنها لم تبذل الجهد الأدنى. لها طاقة فوق الخيال. أهكذا تصبح النساء أثناء السعادة، قادرات على سحق أي

شيء بأيديهنّ؟ لم تكن الأرملة بهذه القوة وكنت أستولي عليها بسهولة.

أغرقت آنا وجهها بين كتفي ورقبتي حيث عضّتني بشفاهها وأسنانها. وكانت تغزوني بلظاها الرطب والحارق. فاشتمّ أنفي رائحة القرفة من دمي الممزوج بعطر شعرها الكستنائي. وكلما كان وجهها يغوص في صدري كنت أستسلم أكثر، حتى لم أعد أهتم بصعوبة التنفس. وأعطيتها أكبر مساحة ممكنة من جسدي لتلثم وتعضّ كما تشاء. وفي الوقت نفسه انتصب قضيبي وتضرّج من هول الحرارة لأنها كانت تحكّ فرجها به. وظلت تتأوه بهمس خافتٍ ومتقطع حتى عضّتني بقوة فانتقل الألم من أنفي إلى عنقي. ثم لعقت مكان العضة.

- هل أذيتك؟
- لا.
- هل أنت خائف؟
- أجل.
- ممن؟
- أخاف منك. ولا شجاعةً تضاهي روعة هذا الخوف.

رفعتْ رأسها عن عنقي فرأيت أحمر الشفاه يلطّخ وجهها. وأطلى ضوء الشمعة جبينها بلون الغروب. وكانت خصلات شعرها كغيوم مطاولة ومرسلة إلى الخلف. رمقتني بعينيها الواسعتين ثم ألصقتْ شفتيها الدمويتين على شفتيّ. ودفعتْ فمها في أعماق فمي. خففتْ من اندفاع قبلتها وابتعدت عني. وأدارتني بذراعيها فأركبتني فوقها. نزعتْ فستانها وأخذت بيديّ لأداعب حلمتيها. وفتحتْ ساقيها وأمسكتْ بخصري المشدود فدفعتْ بقضيبي لتشحذ به بظر مهبلها. كانت تحرّكني كيفما أرادت كأنني جزء منها. قضيبي وفرجها متأهبان

كراقصين ينتظران الموسيقى، وكانت تنظر إليهما. ضربتْ علــى ردفي كأنها تأمرني بالولوج بها. فولجت. ودخلتُ كلياً في ظلمة أحشائها عبر القضيب الذي أدمى شــفريها. أخــرجتني ثم أدخلــتني. فــأخرجتني فأدخلتني. تدفعني قليلاً إلى الوراء ثم إلى الأمام ثانية وكرّرت هذا مراراً. تمسكني بقوة وتدفعني على إيقاع نبض الدم بين أنفي وأذني. وتلاحقت الدفعات وازدادت سرعة وبدأ صدرها يهتزّ تحت يدي. وكنت أدخل قضيبــي حتى رحمها ثم أخرج نصفه تقريباً وأدفعه إلى داخلــها ثانيــة مرات لا تحصى، كدولاب نشيط لا يكلّ ولا يملّ من الدوران. وكنت أناديها باسمها على وقع ذراعيها التي تمسك خصري كالمجاديف. فتجيبني وعيناها تنظر للبعيد: "أجل..أجل". كنت أناديها لأسمع أنفاس تلــك الكلمة "أجل..أجل". وحين بلغنا الذروة معاً التصقتُ بها وغرســتْ أظافرها في ظهري، وصرخنا معاً من هول الرعشة المنتفضة: "أجــل. أجل". سهوتُ على جانبــي لأرى السرير ملطّخاً بالمني والدماء.

- إنها دماؤنا. هذا حبر الاتفاقية بيننا. لقد أمضيت توقيعــك على بكارتي.
- لقد اكتشفت نفسي بين يديك يا آنا.

قبّلتني على شفتيّ ولعقتهما بلسانها وقالت: "كم أنت لذيذ. اشكر السماء لأنني ضبطتُ نفسي ولم ألتهمك". لم تبتسم، فقلت لها: "هــل بوسعي أن أقبّلك؟". فأجابت على الفور: "كلا فأنت غبــار الطلــع وعليك أن تطيع أوامري لأنني الرياح".

أهكذا تكون السعادة، أن نطيع أوامر من نحب؟ وجدتها تنــهض وتجثم فوقي لتطبق عليّ ثانية وبشدة أكبر. أمســكتْ حلقــي بيــد وبالأخرى داعبت وجهي وبدأت تصرخ: "أتريد أن تمــوت لأجلــي؟ أتريد أن تموت لأجل آنّا المجنونة؟". وكنت متسمراً تحتها لا أســتطيع

المقاومة فاستمرت: "أتريد أن تموت لأجلي، وأنت تحـــيّ؟". فأجبتـــها بعينيّ "أجل" وأومأتُ برأسي موافقاً. فشدّت أكثر حتى أغمـــي علـــيّ وأغمضت عينيّ و لم أعد أرى سوى اللون الأبيض يتسع ليشمل كـــل شيء.

استيقظتُ في الظلمة. الشمعة انطفأت. آنّا اختفت. بحثت عـــن ثيابـــي كالأعمى، لبست وقفزت إلى الدرج وصعدته علـــى أربعـــة أرجل. فصفعني الضوء المتوهج في البهو. نظرت إلى الساعة، كانـــت التاسعة مساء. لم يعد دون غايتانو بعد، فعدت إلى غـــرفتي لأســـتحمّ. وكنت ملطّخاً باللون الأحمر كلياً. وتراجع ألم الأنف للمرتبة الثانيـــة أمام كل الآثار التي تركتْها على جسدي وبالأخص حلقي عضّاً وخنقاً. شربت رشفة ماء و لم أستطع أن أبلعها. فتجرعتها بمقياس ملعقة صغيرة. تمددت على السرير. كان هذا يوم السعادة، أفظع يوم مرّ في حياتي.

تغيّبت عن المدرسة في اليوم التالي. لم أكن أقـــوى حـــتى علـــى النـــزول من السرير. وتوقفت عن جرد الأعضاء المتألمة في جســـدي، فكان من الأسرع أن أعدّ ما بقي سليماً. احتقن أنفي ثانيـــة وتركتـــه هكذا. فلم أكن أرغب بشمّ الروائح.

جاء دون غايتانو ليتفقّدني لأنه لم يرني أخرج بـــاكراً، فغطّيـــت عنقي بمنديل. وقال إنه سيأتي إليّ بشيء آكلـــه في منتصـــف النـــهار. "اطمئن يا دون غايتانو. إنها وعكة عرضيّة. لا تتعب نفسك. إنه وهن بسيط يجعلك تسترخي لتستعيد القوى". كنت قرأت كتاباً عن صعود جبال الألب، من كتب دون رايموندو المستعملة.

كان الكتاب يتحدث عن الإنهاك الذي يصيب المتسلق إبان بلوغه القمة، ورغبته الجامحة في أن ينام هناك بينما ينبغي عليه أن يهبط قبـــل حلول الظلام بأسرع وقت ممكن ليعود إلى خيمته. كان عليّ أن أهبط

من ذروة السعادة أيضاً، ولم أكن أتخيل فيها كل هذا الكمّ من المجازفة. فتلك الفتاة كانت كزوبعة لم أكن آمل أن تهدأ أبداً، لم أرغب بالعودة إلى الطقس المعتدل. وما همّني إن لم أنج من تلك الزوبعة! لقد ذهبتُ أبعد من تفريغ طاقتها العنيفة. كنت في اليوم ما بعد السعادة كمتسلق الجبال الذي يفقد السيطرة أثناء الهبوط. هل كنت مجنوناً أنا أيضاً أم كانت كلمة "حب" صعبة اللفظ؟ عندما كان الممثلين يلفظونها في السينما كانوا يتذّرون بها، أم إنّهم درسوا كيفية نطقها بالأكاديمية، وتدربوا عليها أمام المرآة وأدوّها أمام لجنة تحكيم وأمام جمهور المسرح ليقولوا في النهاية وبكل بساطة: أنا أحبك. بل كان أداء من يكتبها على الجدران وساق الأشجار أفضل، لأنها تصل إلى من يقرأها بسرعة أكبر. أما قولها فكان إسرافاً ومبالغة. الحبّ يبدو متخفياً في كل المشاهد التي تسبق إعلانه، مرتاباً ومتشنجاً. وما إن يصرّح المرء به حتى يخرج من فمه شاعراً بالخيانة ويشكو من تفاهة الصيغة التي ظهر بها. فكل كلمة "أحبك" في السينما عبارة عن فشل ذريع، ولم يتقن أحد لفظها جيداً. وكان من المستحيل أن ألفظها أنا الأميّ المستعدّ لخدمة آنا في إخماد شهواتها المستعجلة. لم أرغب في النزول عن تلك القمة التي بلغتُها، بل أردت البقاء في الأعلى لأرفرف كراية ملساء.

أمدّتني هذه الفكرة بالطاقة، فنهضت من السرير وفتحت كتاباً، وبدأت أقرأ. وفي منتصف النهار نزلت إلى دون غايتانو. كان يحضّر الخضروات لطهوها، وريح الخريف في الخارج تلسع النوافذ. "إنها رياح قادمة من الجنوب الغربي وتستمر لثلاثة أيام لا تنطلق سفن الشحن خلالها. ومن كان في البحر عليه أن يعود قبل هبوبها وإلا سيواجه مصاعب جمّة". كانت المدينة تتذوق طعم البحر عبر هذه الرياح المالحة، والأمواج تعتلي سدّ الصخور وتضرب الكورنيش.

بعد الغداء خرجنا لنلتقي برياحٍ عذراء لم تضاجع اليابسة بعد. وكان الأوكسجين النقي يصعد من زبد البحر، فانفتح أنفي بعد أن استنشقت جرعة من رياح الجنوب. وترى الناس تقبض على قبّعاتها خوفاً من أن تطير في الجو والمعاطف ترتعش على جسد من يرتديها. مشينا من المرفأ نحو مارجيلينا. تحدّثنا بالكاد كلمتين فالرياح تأخذ الكلمات معها. وفي الخليج كانت حاملة الطائرات الأمريكية ذو اللون الرمادي تطفو على سطح البحر. وكانت كشارع فارغ بُترت منه المقدمة والمؤخرة. ولم تكن تتدخل في شؤون بقية سفن الخليج الراسية ولا بأورام البركان والشاطئ الذي يعلو البحر كظهر حوت. كان ممشى حاملة الطائرات كشارع خاو خلافاً لأحياء المدينة المزدحمة.

كانت رعونة الريح كجلسة تدليك بالنسبة لي، بعدما أتعبتني آنّا. والسماء تغصّ بغيوم متفرّقة تنفذ الشمس من بينها فجأة فيلمع الموج. ليس البحر أزرق اللون بل لونه الحقيقي أبيض، وعليه أن يتكسر فوق الصخور ليظهر لونه الأصلي. فلابدّ من الطبيعة أن تكون بيضاء من الداخل. أما البشر فلونهم الأصلي أحمر. للبحر والسماء، والنار أيضاً، سرٌّ أبيض كالأثر الذي خلّفته أصابع آنا على حلقي. دخلنا إلى إحدى المقاهي في مارجيلينا حيث دعاني دون غايتانو لاحتساء القهوة بعد مسير ساعة في وجه الرياح التي كدّرت مزاجنا. وأدفأ الفنجان الساخن أصابعنا فعادت إليها الحواس. وجلسنا عند الشرفة نتذوق القهوة بأطراف شفاهنا كنحلة تمتص رحيق الأزهار.

– إنها ليست لك.

حالَ ضجيجُ آلة القهوة وبخارها من أن أفهم ما قاله. فردد على مسامعي:

– الفتاة.. الفتاة. ليست من نصيبك.

- قلت لي ذلك مسبقاً. وأعتقد أنك محقّ.

وضعتُ الفنجان وتابعتُ:

- لا أستطيع أن أقيس تعلّقي بها. أشعر أنها تستخدمني في شيء ما لا أعرفه. لكني أرغب بخدمتها بأي شيء فأنا لا أجرؤ على مقاومة جبروتها.

نظر دون غايتانو صوب البحر.

- الأنوف المعوجّة تُصلّح. أمّا الدماء إذا نزفت لا تُعوّض ولا تعود إلى الوراء.

- وماذا أفعل بدمي؟ لماذا أحتفظ به؟ إن احتاجت إليه فهو مِلكٌ لها.

استدار ثانية صوب المقعد وشرب الرشفة الأخيرة من القهوة.

- بوسعك أن تفعل بدمك ما يطيب لك. أمّا دماء الآخرين فليست ألعوبة بيديك.

لم أفهم كلامه وتجنّبت أن أطالبه بتوضيح. كانت الرياح في الخارج ترفع البحر الأبيض وترشّه على الشارع، كمن يرشّ الرزّ على العروسين.

خرجنا من المقهى، فدفعتنا الرياح من الوراء بلكمات على ظهرنا. وهربنا من موجة عاتية كادت أن تسحقنا فركضت مرحاً بينما كان دون غايتانو يثبّت قبّعته المبللة على رأسه. وكنا لوحدنا حيث أجبرت الرياح السكان على البقاء في منازلهم. وتخيلت المدينة خاوية على عروشها وقد هجرها أهلها تاركين الأبواب مفتوحة والطعام على النار. فبوسعي أن أدخل إلى كل الأبنية، وأجلس على كرسيّ الأسقف وخلف مكتب العمدة، وأسكن في القصر الملكي، وأصعد على السفن. حتى الأمريكان اختفوا تاركين حاملة الطائرات في وسط الخليج.

شعرتُ بحساسية تطوّق أنفي جراء الفكرة حتى رأيتهم يتقدمون عكس الرياح باتجاهنا. لقد شكّلوا مجموعة بلباس وأحذية رياضية ليمارسوا رياضة الجري في هذا الجو. نحن مدثّران بالثياب وهم أنصاف عراة. لقد اختفى السكان وهبط أهل المريخ فعلاً، فنظرت إلى قدميّ لأتأكد إن كنت لا أزال على سطح الأرض. الركض عندنا فعل جديّ، فنحن نركض فزعاً من زلزال أو قصف مدفعي. ومن الحماقة أن نركض دون أن يلاحقنا أحد، كأن تغلي المياه في القِدر دون المعكرونة. مرّوا من أمامنا مركّزين في حركاتهم، يستنشقون بانتظام ويزفرون في وجه الرياح. فقلت:

- هؤلاء من صنع الخيال بلا شكّ. وتلك القهوة الساخنة سبّبت لنا الهلوسات.

- بل إنهم موجودون. إنهم الواصلون الجدد، آخر شعب خُلق على هذه الأرض. يعرفون صناعة الحرب والسيارات. ليسوا إلا بأطفال متضخمين. إن سألت واحدَهم أين يوجد، يجيبك بغنج: 'بعيداً عن بيتنا'. إنهم موجودون إذن. وربما كنا نحن لسنا موجودين بالنسبة لهم. يلتقون بنا ويمرون من أمامنا ولا يروننا. يسكنون هنا ولا يرون البركان حتى. قرأت مرّة في الجريدة أنّ بحاراً أمريكياً وقع في فوهة الفيزوفيو. ما من غرابة. لم يره!

ابتعدنا عن الكورنيش ودخلنا بين الحارات فظهر أهلنا الطيّبون محتشدين متباعدين. العجزة يتحركون باضطراب ويبحثون عن مسند، والأطفال يفتحون أذرعهم ليستمتعوا بلسع الرياح. لم يكن هناك من غسيل منشور على الحبال كي لا تقتلعه الزوابع، فاتضحت السماء في الأعلى مجزأة إلى غيوم منفوخة كالفطائر المقلية. "هل فتحت شهيتك؟"

سأل دون غايتانو وهو يلقي بنظرة إلى الأعلى. لقد سمع أفكاري عن الغيوم. فأكمل: "هذه الغيوم مقلية باحتراف".

كان ذلك اليوم كيوم نقاهة من السعادة حيث نجح دون غايتانو والرياح في مساعدتي على هضم الأحد الفائت. وهكذا عرفت أنّ السعادة تُنسى في اليوم اللاحق. بينما تبقى الرضوض على الجسد لتحفظ من السعادة آثارها الساحقة فقط.

جاء السيد لاكابا إلى البهو ليقصّ علينا رحلته الأخيرة إلى روما. واستغربت من قدرة دون غايتانو على السخرية منه دون أن يبتسم، بينما ألوذ بنفسي إلى المرحاض لأفرّغ قهقهتي على حديثه المليء بالسخف والمراءاة والأخطاء اللغوية. فمن بين عجائب روما لم يختر إلا المقابر الذي يغوط فيها المشرّدون، ومن بين كل التعبيرات عن جمال أعمدة الفاتيكان لم يختر إلا أن يصف لمعانها ببريق طلاء الأحذية. ولا أشكّ أنّ دون غايتانو كان حذراً في سخريته من لاكابا العملاق، ولم يكن ليستطيع الدفاع عني إذا رآني بين يدي بائع الأحذية ينتقم مني على ازدرائه.

لعبنا السكوبا وألهينا الحساء وشربت كأس نبيذ بلدي أيضاً. وكان دون غايتانو يعاملني بشكل مختلف في ذلك اليوم إذ لم يناديني يا فتى. وبعد العشاء عاد ليحدّثني عن تفاصيل الحرب.

- كنا قد اعتدنا على سماع الخرافات من الراديو والجرائد: الأمة وعظمة الامبراطورية والاستبسال في الدفاع عن حدود الوطن والتصدي في وجه المخططات الأجنبية. كان لدينا امبراطورية ونحن بعوز شديد للخبز والقهوة. لا بأس. المهم أن نكون دولة امبراطوريّة منيعة. وبعد وصول الأمريكان انتقل نفس الراديو والجرائد إلى صفهم. وتحوّل العدو إلى

مخلّص بين ليلة وضحاها. نفس الجريدة وزواياها المكتوبة من نفس الصحفيين أخذت تكتب العكس، حتى تولّد لدينا الانطباع أننا نقرأ الجريدة بالمقلوب، كأن يصبح الأتراك مسيحيين مثلاً. ولم يكن بين الكتّاب أيّ فاشي، كأنّ الفاشية ضرب من ضروب الخيال. كان الحفاظ على مناصبهم ما يشغل بالهم. وكان الأمريكان يوزعّون الطحين الأبيض على المخابز المشتاقة لرائحة الخبز منذ مدة طويلة. ومع قدومهم رأينا الزنوج للمرة الأولى في المدينة. وصارت السيدات العجائز يتعوذّن بالله في الطرقات كل لحظة.

كانت حكاياته تفتّح أذنيّ فيدخل صوته الأجش ليستحثّ أعصاب الخيال. وكان بوسعي تذوّق الخبز المصنوع من الطحين الأبيض، ورؤية عيون الجدات تتضرع إلى السماء وحلاً من الجندي الأسود، وأكاد ألمس العملة الجديدة التي استبدلت الليرة بين أصابعي. كان الإصغاء لدون غايتانو يجعلني شاهداً ثانياً على تلك الحقبة، وهو كعازف المزمار التي تسحرني أنغامه، أو حكاياته، فتجذبني إليه.

- في تلك الأشهر خرجت المدينة عن طورها. احتفالات في كل ليلة لتفريغ الكبت السابق وللنهوض مجدداً ولصنع المشاريع في ما بعد الحرب. وقد استمرّ القصف الألماني حتى الربيع، لكننا لم نكن نأبه به ولا نتراكض إلى الملاجئ عندما تنطلق صفارات الإنذار، وهذا ما كان يسبّب خسائر إضافية. وقبل أن ينسحب الألمان نهائياً تركوا في المدينة قنابل موقوتة، انفجرت واحدة منها في البريد المركزي وأحدثت مجزرة. لم يستطيعوا تحمّل الخسارة فاستخدموا هذه التقنية القذرة، وعرفتُ أنهم عمّموا هذه التجربة في كل مكان

خرجوا منه مدبرين. وأنا كنت أعمل حارساً لمستودع ألمانيّ مهجور مازالت أغراضه فيه، حيث نجح رجل شجاع ومهذّب لوحده في حمايته من عمليات السلب والنهب. وكنت أحرسه ليل نهار وسلاحي لا يفارقني منذ أيام الثورة. وكنت أتقاضى راتباً جيداً، لكنها نقود فارغة في تلك الحقبة تدعى بالليرة الأمريكية يطبعها الأمريكيون ويوزّعونها على عجل. فيزوّرها أغبى طبّاع في المدينة، لأنها نقود مخصصة للصرف والاستهلاك وليس للحفظ والتوفير.

- وكيف أصبحت ناطوراً في هذه البناية؟
- عن طريق والدك.

صدمتني الإجابة، وصُعقتْ أذناي حتى نزف أنفي. وضعت يدي على وجهي فشعرت بارتفاع الحرارة، وسرعان ما ارتجفتُ وتصببت عرقاً. فحملني إلى المغسلة ليبلل رأسي بماء بارد. لم أستطع أن أنظر في وجهه. أبـي؟! كانت المرة الأولى التي أسمع هذه الكلمة وأعرف أنني كنت ابن أحد ما. "اعذرني يا دون غايتانو، أشعر بالإعياء. من الأفضل أن أخلد للنوم. شكراً على النزهة".

صعدت إلى غرفتي لحاجتي في البقاء وحيداً مع أفكاري. توجهت إلى السرير وأدخلت رأسي تحت الغطاء. كانت الريح تزمجر في الفناء ككلب ملّ قيوده. كان أبـي موجوداً، ودون غايتانو يعرفه. لماذا لم أرغب بسماع اسمه؟ لماذا كنت سأبكي؟ غططت في نوم عميق. لم أكن أرى الأحلام، كأنني أقضي الليالي بغواصة لا تهبط الأحلام إلى مستواها فتبقى تسبح بعيدة قرب سطح الماء. استيقظت للذهاب إلى المدرسة. وما زالت آثار الضربة، التي أصبحت بنفسجية، على أنفي حتى لو لم تكن تؤلمني. ألقيت التحية على دون غايتانو، وقال إنه سينتظرني على وجبة الغداء.

برّر كسر الأنف غيابي عن المدرسة في الأمس. ولعبت الرضوض الواضحة على وجهي دوراً في نيل التقدير الذي حصلت عليه بالتفاني في الدفاع عن المرمى.

وبدأت أنظر إلى البالغين بشكّ غريب من نوعه على أن يكون والدي واحداً منهم. ولم أكن أفكر بأمي لأنّ دون غايتانو لم يذكرها، فلم تكن موجودة بعد. وما كان لوالدي وجود أصلاً لو لم يذكره دون غايتانو بالصدفة في اليوم السابق. حينها بدأ يظهر خلف الوجوه في المدرسة والشوارع. وكانت الكثير من تلك الوجوه مضحكة، وأحدها كان احتمالاً وارداً. وانتبهت للمرة الأولى أنه من الممكن أن أرث ملامح أحد ما، وهذا ما وددت توضيحه على الغداء.

ولا أنكر أنني شككت إحدى المرات أن يكون دون غايتانو هو أبي نفسه، لكني عرفت البارحة أنّ هذا ليس صحيحاً. واستطاع هذا الخبر أن يخلع شيئاً ما من رأسي دون أن يعوّضه بشيء جديد. في تلك اللحظة لم أفكر بآنا والمخبأ والسرير، وإنْ كان هدف دون غايتانو أن يبعدها عن تفكيري فقد نجح في ذلك. ثم إنّني لا أملك سعادتي، وتفلت من يدي في كل مرة. فإن عادت آنا وجدتْني مستعداً وإلا انتهت صلاحية السعادة. وإنّ قمّة الأسى أن تكون سعادة الإنسان تخضع لأمر إنسان آخر. لم تحترق أعصابي بسبب الانتظار، بل كانت تحترق لأنها تجهل ما الذي ينتظرها. ولم يعد العدّ العكسي كاف لضبط النفس بعد أن أدركتُ ما الذي ينتظرني.

لم أكن أحمل ساعة يدوية في تلك السنوات. وهي الهدية القيّمة التي كان أولاد جيلي يأخذونها في يوم المناولة الأولى. لقد شاركت أنا أيضاً في تلك الاحتفالية في الكنيسة، ولكنّهم لم يسمحوا لي في المشاركة بالحفلة وتناول المشروبات الباردة لأنني بلا أبوين. وبسبب

الكنيسة نشأتُ متخلفاً أحسب الزمن على مراحل. وكنت أعرف الوقت من ساعة المدرسة الحائطية. وكان الجميع يحمل ساعة بيده هناك مع أنه لم يكن من داع لها. وشخصياً لم أكن أرغب باقتنائها، ولم يكن لديّ رغبات أخرى بشكل عام. بل كنت أرى صفات المُلكية مضحكة. "لي.. خاصتي..". إذ لم أكن أملك شيئاً في الحياة، ولا حتى أب. وكنت أستعمل صفة المُلكية للمرة الأولى "أبي.."، ولم أستظرف الحالة. فما الفائدة من أن يكون لي أب لم أره قطّ؟.. استغربت، يومها، من كثرة استخدام كلمة "أب" في جميع الدروس، سيّما الدينية. وكم كنت أصادفها دون أن تحرّك مشاعري. ولكن وقْعها في ليلة الأمس على مسامعي كان مدويّاً. عند الانصراف من المدرسة حاولت جاهداً أن أطأطأ رأسي كي لا تصطدم نظراتي بعيون الآباء من حولي.

وأن يكون لي والد فهذا يعني أنني كنت ابنه، وهو أكثر تداعيات الأمر سخريةً. فحتى البارحة كنت ابن 'لا أحد'، الاسم الذي أطلقه أوديس على نفسه عندما دخل كهف البوليفيموس في الأوديسة. أعجبني هذا التعبير حقاً، اسم مزيف يقصي الجميع بلا استثناء. أما حينها أصبحت ابن أحد ما، يعرفه دون غايتانو على الأقل، واحد من أبناء هذه المدينة، رُزق بولدٍ في لحظة مباركة، ومن يدري إن كان مبالٍ بالأمر أم لا. جعلني هذا الرجل أنشغل في ماضيّ، بحجة أنني ابنه. ورحت أبعد من ذلك، إذ يمكن الصعود عبر والدي إلى جدّي ومنه إلى جدّ والدي وهكذا. استلطفتُ الفكرة لأنها تشبه عتبات الدرج الذي صعدته بحذر في الظلام بعد عاصفة آنا.

كان الآباء مرعبين. يصفعون الأبناء على وجوههم ويركلونهم على مؤخراتهم. ويتصاعد صراخ الأولاد وأنينهم من خلف أبواب

البيوت. أما أنا فلم أتعرض لمآسٍ من هذا القبيل. وإن تحسّرتُ عندما يأتي المساء، وتنادي الأمهات أولادهنّ لينعموا بالحنان، أستذكر مباشرة توبيخهنّ وضرباهنّ، فأخرج بنتيجة التعادل. فأصوات الشجار واللكم تصل إلى غرفتي لأسمعها شئت أم أبيت. حاولت أن أصمّ سمعي بيديّ ولكن بلا جدوى.

أحد الأولاد لا يغيب عن بالي على الإطلاق، اسمه آنيللو. كان هزيلاً مثلي مع أنه يكبرني بعامين. ولم يكن أبوه يتردد عن ضربه حتى في باحة البناية. وكان الولد يتلقى الضربات دون ألم أو بكاء، لكنه يرتجف مغمض العينين ومحرّكاً رأسه بشكل عصبي ليعبّر عن مقاومته وبطولته غير المجدية أمامنا. لا أستطيع أن أنساه. ويبقى حاضراً في ذاكرتي كقديس مكفهرّ الوجه وفمه ينزف دماً. توفيّ بين يدي والده الذي لم يُسجن جرّاء فعلته. آنيللو الصغير، حياة مصغّرة من بين الكثير من الحيوات التي تنتهي مبكّراً. ذهبت إلى جنازته مع دون غايتانو، ورأيت أمه تبكيه بلا دموع. لم أكن ألتقي به في المباريات لأنه كان حارس مرمى الفريق المقابل، فنكتفي بتبادل النظرات من بعيد. وكان أبوه حينما يجده يلعب في الباحة يجرّه من شعره وينهال عليه باللكمات. وفي إحدى المرات حاولتُ أن أستفزه فرميته بحصوة، فلم يعرني أي انتباه. وأكاد أجزم أننا لو رميناه جميعنا بالحصى لما كان ليؤثر فيه شيئاً. كان وجهه الصارم، عصيّ الدمع، يثير عواطفي، فأذرف دمعاً وأمسحه بكف يدي متظاهراً بأنها حساسية. آثرنا الصمت أثناء اللعب من بعده لمدة طويلة.

طبخ دون غايتانو وجبتي المفضلة، الباستا بالبطاطا، وكانت لذيذة وطازجة. "اعذرني لأنني غادرت جلستك في ليلة أمس". كان الناس يمرون أمام المكتب، فيلقي دون غايتانو التحية ويقول بلطفه المعتاد:

"أهلاً تفضلوا تفضلوا". أخبرني القصة التي سبقت ولادتي بين كلمة 'تفضلوا' وأخرى. كان أبي موظفاً في الجيش وبلغ أربعين عاماً عندما بدأت الحرب. تزوّج أمي التي تصغره بخمسة عشر عاماً، قبل أن ينطلق إلى افريقيا. ثم عاد إلى البلاد مع نهاية خدمته العسكرية قبيل يوم الهدنة، الثامن من أيلول 1943، عندما استسلمت إيطاليا وفرّ الملك. فتوارى عن الأنظار حينها، ثم انخرط في قوى الثورة. والتقى بدون غايتانو أيام المعارك في المدينة. وكان شديد البأس بحيث استطاع أن يسيطر على مستودع ألماني لوحده ضد الحشود التي أرادت إفراغه، واعتبره حقّاً عاماً ولا يجوز انتهاكه هكذا. وقف على بوابة المستودع بلباسه العسكري وبمسدس في كل يد، فتراجعوا لانتهاز فرصة أفضل. ثم عيّن دون غايتانو على حراسته وأصبحا صديقين، مع حفظ الألقاب بينهما، منذئذ. وكانت إيطاليا في ما بعد الحرب تشهد مرحلة انفتاح واسع. فالرجال منهمكون في جمع المال، والنساء يخرجن للسهر مع الأمريكيين.

- فقدت نساء نابولي صوابهنّ بالجملة. واستضاف كل بيت جندياً أمريكياً. حمل هؤلاء البحبوحة والمشاريع والأعمال. وكانت الفتيات يصبحن أكثر جمالاً وسفاهة، ويذهبن إلى حفلات الأمريكان في الريست كامب. وحينها كان النقل الداخلي لا يتوفر في كل الساعات، فتطلب الفتيات توصيلة من سيارة 'جيب' فيها أمريكي واحد على الأقل، يأخذ الفتاة ويطارحها الغرام. وكثرت جرائم القتل بسبب الغيرة. أحد الرجال في الريف عرف أنّ زوجته تخرج مع الأمريكان فلم يحرّك ساكناً لأنها تدرّ عليه بالمال، وراح يوصلها إليهم أيضاً. ولكن في إحدى المرات يحدث بينهما شجار بسيط

فتقول الزوجة نكاية إنها تشعر بالمتعة على أسرّتهم. فقامت القيامة حينها ودبّت الغيرة في قلب الرجل. قتلها وقتل حماته ونسيبته وزوجها. مجزرة حقيقية...

استهلكت نابولي دموعها جرّاء الحرب، فروّحت عن نفسها مع الأمريكان بالكرنفالات اليومية. حينها فهمتُ آلية المدينة، نظام مستبد وفوضى عارمة في آن واحد، والمافيا ترعى هذا التوازن. نابولي تتطلع لملك متسلط يوفّر متطلباتها بما لديه من جور وقسوة، على ألا يكون عنده حكومة متعجرفة تقرّ الضرائب وتمنع المحظورات. فالخبز والرقص قادران على الإطاحة بأي حاكم. إنها مدينة إسبانية. في إسبانيا هنالك حكم ملكيّ وأقوى حركة فوضوية في أوروبا. نابولي مدينة إسبانية، وُجدت في إيطاليا بالخطأ...

أُغرمت والدتك بضابط أمريكي بعد ولادتك بمدة وجيزة. وعندما عرف والدك بالأمر، جاء إلى البهو هنا حيث كنت أعمل كناطور. وكان هو من دبّر لي هذا العمل، في بنايته. جاء إليّ صباحاً بعد أن باع أغراض المستودع الألماني للأمريكان وقال لي: "اعتن بشأن الطفل يا دون غايتانو". صعد إلى المنزل وأطلق الرصاص على والدتك. وفي مساء اليوم ذاته أبحر إلى أمريكا ولم أعد أعلم عنه أي شيء. اسمه...

- لا تقل لي اسمه أرجوك. لا تضع في رأسي اسماً لن أستطيع التخلص منه. ماذا أفعل به الآن؟ لا أستطيع حتى أن أكنّي نفسي به. إنني أدعى بكنية السيدة التي تبنتني. نقطة انتهى.
- في الأيام الأولى اعتنيت بك شخصياً.
- ولماذا تخبرني بالقصة اليوم بدل أن تقصّها سابقاً أو أن لا أعرفها أبداً؟

- لأنك لابدّ أن تعرفها. والبارحة أتممت الثامنة عشر عاماً.
- أجل. عيد الميلاد الذي يهتم به الجميع كميلاد المسيح والفصح. لكن الأعياد أعرف متى تحين، إذ تُكتب المناسبة على واجهات المحال. وأعرف أنّ عيد ميلادي يصادف في نوفمبر. هل تذكر اليوم الذي توفيت فيه أمي؟
- لا أذكر اليوم بالتحديد، إنما كان الربيع في شهر أيار.

بقيت أتأمل الباستا بالبطاطا بشرود. كان لوالدتي قبر، تخيلت أنني أذهب إليها حاملاً باقة من الأزهار. كلا. إنني غريب عنها ولا أعرف حتى اسمها، عليّ أن أسأل عنه. كلا، لقد رحلت هي أيضاً. كانا يسكنان في هذه البناية، ولا أريد أن أعرف أين. خرجت من دوامة الأفكار.

- أتعلم أنّ الباستا بالبطاطا التي تحضّرها أنت ليس لها منافس يا دون غايتانو؟
- يسعدني أنها تعجبك. الكمية كبيرة، ضع المزيد. أهلاً أهلاً تفضلوا.

مرّت الأرملة بفستانها الملّون. كانت ستتكلم معي لولا أنها رأت وجهي المصاب. فطلبت من دون غايتانو أن يصعد ليصلح شيئاً في بيتها.

"أنا في خدمتك سيدتي" أجاب وكان متفائلاً. "هلّا جليت الصحون؟ بل ضعها في المغسلة، سأجليها أنا لاحقاً. وابق في البهو حتى أعود".

أنا ابن أحدهم. وداعاً أيها اللاأحد، وداعاً يا أشعار أوديس الملفّقة. كنت ابناً لأب مجرم وأم خائنة. ابن من اقترف جريمة وهرب إلى ما وراء المحيط، ومن قُتلت ودُفنت تحت الأرض. ولابدّ أن

أشبههما، وليس لي حرية الخيار، و لم أعد أنتمي لبقية النـــاس. أكـــان بسبب أمي أنني لم أدافع عن نفسي عندما أرادت آنا أن تخنقني؟ هـــل ورثتُ عنها التضحية بالنفس من أجل الحب؟.. كنت أرتّب الطاولـــة وأقلّب الفكرة. ما الذي ورثته عن أبـــي؟ لم أرث منه الغـــيرة علـــى الأرملة المحتاجة للجنس ولا على آنا التي كانت من نصيب رجل آخر. و لم أكن أتّسم بالطابع العسكري أيضـــاً، بـــل كنـــت أرى طـــلاب الأكاديمية الحربية الذين يرتدون البزة على أنهم متّهمـــون بجـــرم مـــا. ورحت أصطنع بعض الخيال لأشعر بالغيرة: آنا تكتب لخطيبها، وتزوره في السجن، ويتعانقان. ومن يدري إن كانا قادرين على العناق في غرفة الزيارة. لا شيء. لم أتأثر بما تخيلته أبداً. كيف بوسعي أن أصير غيوراً؟ لقد وصلنا إلى ذروة السعادة وخطيبها وراء القضبان. كان هـــو مـــن يستحق أن يكون غيوراً. أبـــي العزيز، عذراً، لم أرث منك شيئاً. بـــل إنني أشبه دون غايتانو أكثر. لا بأس فأنتما صديقين. أرث من صديقك كل يوم. يعلّمني المهن، ويروي عليّ الحكايات، بلا سبب، نيابة عنك. أبـــي العزيز، أحدهم ينقر على الزجاج، سأذهب لأرى من هنـــاك. حاول أن تلملم أغراضك وترحل عن أفكاري بأسرع وقت.

نشّفت يديّ وذهبت إلى زجاج الشبّاك. ظهرت آنـــا وقالـــت: "نلتقي الأحد القادم" ثم اختفت. رمتني الدهشة علـــى كرســـي دون غايتانو فاغراً فاهي وأنظر إلى الزجاج الفارغ. وارتعشتُ مـــن أســـفل ظهري حتى رقبتي. مرّ أحد الساكنين في البناية وسألني عـــن البريـــد، فسلّمته الظرف الخاطئ. وتبعته إلى الدرج لأصحح الغلطة.

ثم جاء بائع الفواكه ومعه حاجيات السيدة التي تسكن في الطابق الأخير. وصرخ كالعادة من الباحة لتُنـــزل السلة. "سيدة سانفيليشـــا! أنـــزلي السلة يا سيدتي هيا!". استدار إليّ: "لقد أصبحت عجـــوزاً و لم

تعد تسمع. عليها أن تركّب جهازاً في أذنيها". "هل تقصد السماعة؟" قلت له هكذا كي لا أتركه يكلّم نفسه. "أجل. جهاز في الأذنـــين.. سماعة.. سيدة سانفيليشا!!!! !!". سمعت السيدة نداء البائع عند الصرخة الثالثة، أو أنّ أحدهم ضرب على باها ليخبرهـــا بقدومـــه. "انتظـــر لحظا!!!!!!" اللحظة بالنسبة للسيدة سانفيليشا أطول من اللازم، تنطلـــق بشكل جيد ولكنها لا تصل. يصف دون غايتانو صوقما بالبوق الـــذي يوقظ الأرواح في المطهر. "أنـــزلي السلة يا سيدتي أرجوك. هيـــا!!!!". فترد عليه: "انتظر لحظا!!!!!!". وعندما استطالت اللحظة أكثر نظرتُ إلى البائع وقلت له: "تاء مربوطة" كي أضع نهاية لتلك اللحظة الطويلـــة. لكن البائع لم يفهم النكتة على ما يبدو. قال بينما ينتظر: "يـــا ربّـــاه. هذه العجوز لا تجد السلة. لماذا لا تضعها قرب النافذة مثلاً؟". فتصرخ الجارة من النافذة المواجهة: "ابحثي عنها تحت المغسلة". فتردّ عليها: "لم أجدها هناك". الجارة الثانية: "ابحثي خلف المدفأة". "وليســـت هنـــاك أيضاً. تباً لهذه الخادمة التي تأتي لترتّب البيت فتختفي الأغـــراض مـــن حولي". الجارة الثالثة: "وهل تقصدين أنّ الخادمـــة ســـارقة؟". "لا لم أقصد ذلك". البائع ينفد صبره فيصيح مزلزلاً البناية وتُحلّ المشـــكلة. "وجدتها وجدتها. هاهي السّلة هاهي". فتتعالى أصـــوات الشـــكر لله وتمتزج بأصوات الشبابيك الكثيرة وهي تُغلق بعد أن شاركت بالمشهد المعتاد.

"نلتقي الأحد القادم". هل جاءت آنا حقاً أم كانت مجرد رؤيـــة؟ هذا ما كان ينقصني. الرؤى. على هذا المنوال ستصبح آنا قدّيسة. لقد بلغتُ سنّ الرشد فقط ولم يحن سنّ الهلوسات بعد. لقد جاءت فعـــلاً. ليتها توقفت للحظة واحدة فقط. وليت كان أمدها طويلاً كلحظـــات السيدة سانفيليشا "لحظا!!!!!". كانت هي بشحمها ولحمها، ومرة أخرى

خلف الزجاج. لم أشتم رائحتها، ولم أسمع صوتها أيضاً. فهمتُ كلمة يوم الأحد من حركة شفتيها. وربما كان وجهي لأبلهٍ سحرته الرؤى. فذهبت إلى المرآة لأتأمل الوجه الذي رأته آنا. عينان جاحظتان، فـاه مفتوح، حنك مركّب بطريقة خاطئة. كنت أبلهاً حينـها، لا محالـة. بدوت كالراعي الذي يظهر في مشهد ميلاد المسيح. عاد دون غايتانو. "هل أحضّر لك القهوة؟". "لا لقد شربتها عند الأرملة" كان منتعشاً. رآني أحدّق بالمرآة: "تشبه أباك جداً بالنحف والعظام الناتئـة. لكـن أعصابه كانت مشدودة أكثر، وينبعث الشرر من وجهه. كان جسده كمولّد الطاقة. إنك تشبهه كثيراً، بل أنت نسخة منقّحة عنه. يبدو أنّ الآلة بقيت على حالها لكن المحرّك تحسّن بقـدومك". كـان يسـمع أفكاري كلها ويجيبني عنها.

- دون غايتانو، إنني أشعر بالقلق منذ أن أخبرتني عنه البارحة. ففي صغري كنت أتخيل نفسي جزءاً من هذا المكان، أبـي كان البناء وأمي الباحة. أنقّب عنهما في كل الزوايا كـي أتعرّف عليهما. كان هذا التأويل يصاحبني ويجعـل مـن الظلام رفيقاً. ولكن البارحة انشغلتُ بالتفكير ممن ورثـتُ صفاتي.

كان يسمعني بينما يقوم بوصل شرائط كهربائية للأضـواء الـتي سيعلّقها على البوابة احتفاء بالميلاد. وقد اعتدنا على مرور السكان من أمامنا ليقطعوا حديثنا فنعاود الكلام من حيث تركناه.

- والآن لم أعد جزءاً من هذه البناية التي تشعر بنقصان هـذا الجزء. صرت كالآخرين، ولدٌ لابدّ أن يشبه أبويه. وأنـا لا أريد أن أصبح ابناً لأحد، أريد أن أبقى جزءاً مـن هـذا المكان. اعذرني، ولكني أعتقد أنني أشبهك أنـت. لـيس

بالوراثة، بل بالتقليد، فأنا أفعل ما تعلّمني إياه وهكذا أقترب منك أكثر.

مرّر إليّ الوصلة الكهربائية، فجلست. ربت على كتفي قائلاً: "لقد أصبحت رجلاً وعليك أن تعرف ما لك وما عليك. أنت لا تشبهني رغم أنني نشأت دون والدين مثلك، ولكنْ لو أنّ أحداً أعلمني باسمهما لبحثت عنهما في البحر واليابسة". أخرج من جيبه علبة مطاولة وضيّقة وملفوفة بورقة جريدة. "إنها لك. افتحها".

- أهي هدية لي يا دون غايتانو؟

كانت المرة الأولى التي آخذ فيها هدية من أحد. فتركت الوصلة، ولمست العلبة الصغيرة وفهمت ما كانت. مضغت ريقي دون لعاب، وفتحتها. فلمست مقبضاً عاجياً لخنجر حاد. أخذه من يدي ومرر النصل على شعر معصمه ليريني جاهزيته. ثم ثنى النصل وأدخله بالغمد. وأرجعه إليّ طالباً مني أن أفتحه. فأخرجت النصل وثنيته ببراعة. فابتسم وقال لي:

- عليك أن تحمله دائماً. سيكون هذا الخنجر كسروال إضافي وبدونه ستشعر بالعار. أتفهمني؟ أغلقْه الآن وخبّأه في جيبك كي لا يراه أحد من الجيران.
- إنها هدية مهمة. كيف أوفيك هذا الدَين؟
- ستوفيه يوماً ما ولكن ليس معي. عندما يأتي ذلك اليوم، سوف تهدي خنجراً لشاب تلتقي به. وهكذا توفيني دَيني. لقد حصلتُ على أول خنجر من بحّار، وقع منه أرضاً بعد مشاجرة عند المرفأ. حملته وأرجعته إليه فأهداني إياه.

كان الجميع في المدينة يحملون الخناجر في جيوبهم. وكنت أعرف ذلك دون الرغبة بحيازة سلاح شخصي كما يفعل الجميع. لكنني

شعرت بأهمية الأمر عندما صار الخنجر في جيبـــي. لابدّ أن أقتنيه ليس لأنني أصبحت رجلاً بل لأنني كنت واحداً من أهـــل هـــذه المدينـــة. فملامح رجولة الشاب يراها الآخرون فقط. أما أنا بقيت كما كنـــت منغمساً في الأفكار وراغباً بتعلّم كل شيء.

- لن تستخدمه لتقطيع الخبز أو لتنظيف الأظافر. بل في حالة الدفاع عن النفس فقط. عندما تشعر أنـــك محاصـــر بـــين المعتدي والجدار وما باليد حيلة أخرى، أخـــرجِ الخنجـــر وامسكه بوضعية منخفضة عند مركز ساقيك.

قام بالوضعية وأضاف: "وانظر في بؤبؤ عيني خصمك الذي قطع عليك الطريق. ولا تنـــزع عينيك عن عينيه"... رآني أركّز النظـــر في عينيه. "يا ربّ كفّ البلاء. لكنه ينفع في هذه المواقف فقط. إنه تأمين على الحياة ليس إلا". أومأتُ برأسي موافقاً وعدت إلى الشرائط.

جاء العجوز الذي يسكن عند مدخل الحارة، وقال لدون غايتانو إنّ زوجته مريضة منذ ثلاث أيام. وطلب مني أن أرافقه إليها إذ لـــيس بإمكانه إحضار الطبيب. كان الفقر يلوح على وجهه البـــائس وثيابـــه الرثة. نظر دون غايتانو إليّ، فقلت: "لكني لا أدرس الطـــب". فأصـــرّ الرجل: "إنك طالب على كل حال وستفهم أكثر منا، فنحن أميّـــون تماماً". لم أستطع أن أردّه خائباً فذهبت معه مكللاً بكلمـــات الشـــكر والعرفان.

كانت رائحة الشقاء تفوح في المنـــزل، والعجوز ممـــددة علـــى السرير وحولها ثلاث نساء يسبّحن بالمسبحة. لمستُ جـــبين المريضـــة فعرفت أنّ حرارتها مرتفعة. وكشفت عنها فإذ بجروح متقرّحة تحفـــر كعبيها. سمعت النسوة يتهامسن عن الأجر الذي سأتقاضـــاه، قلـــت للرجل إنني ذاهب إلى الصيدلية لآتي بضماد ومرهم. والحمد لله أنـــي

كنت أحمل بعض النقود في جيبي. فاشتريت الضروري، وحبوب خفض الحرارة أيضاً. وعدت لأعالج الجروح. لكن العجوز لم تستطع أن تبلع الحبة، فذهبت إلى الخبّاز وعدت بقطعة خبز طرية أدخلتُ فيها الحبة فاستطاعت أن تمضغها. شكرني الجميع ودعوا لي بالتوفيق. وعندما عرفوا أنني لن أتقاضى شيئاً أرادوا أن يقبّلوا يدي. فرفضت مجيباً أنني لم أفعل إلا واجبي وخرجت.

في هذه الأثناء كان دون غايتانو يحل مشكلة وقعت بين جارتين، حيث اشتكت الأولى من أنّ غسيل الثانية التي تسكن فوقها يقطر فوق غسيلها الذي كاد يجفّ. ورغم أنّ المسألة بسيطة، إلا أنه لا مناص من الصراخ كي تسمع البناية بأسرها ويتدخل فلانٌ وفلانة كما تقضي العادة. وقبل أن تُنهك التبريرات المنطقية وتحين جولة القدح والردح والفضائح، يتدخل الناطور ويدعوهما لإكمال المناظرة عنده في البهو وجهاً لوجه. وعندما عدت من بيت العجوز، كانت السيدتان في مرحلة متقدمة وبُحّ صوتُهما. فجلست على الطاولة مجدداً لأكمل توصيل الشرائط. تحدث المشاجرات والمهاترات غالباً لأنّ أعداد الجيران كبيرة ويسكن الواحد فوق الآخر. لكن دون غايتانو كان يستخدم السحر للقضاء على المشاحنات بين الجارات خصوصاً. والسحر يكمن في دعوتهنّ لفنجان قهوة، فيتعدل المزاج ليتجاذبن أطراف الحديث باليوميات العامة، وسرعان ما يعمّ السلام. كان لقهوته سلطة قضائية تبتّ الأمر وتحلّ المشكلة. فأشعلتُ أضواء الميلاد لإضافة الفرح. وهنّأت الواحدةُ الأخرى باقتراب العيد وخرجتا متعانقتين يتحدثان بمواضيع نسائية.

- ماذا تضع بالقهوة لتحصل على هذا التأثير يا دون غايتانو؟

- أضع فيها قليلاً من نبتة الصبر.. إنها نبتة تنمو في حاراتنا الفقيرة. كانت السيدتان بحاجة للتفريغ والخروج من المنزل ولقاء شخص يستمع إليهما.

كانت أيام الأسبوع تمرّ ونحن ندخل شهر ديسمبر. اتّشح البركان بالضباب وخلّفت ريح الشمال الصقيعَ على الأرض ليلاً، وسماءً نقية خلال النهار لتبدو "كخيمة نُسجت من حجر الفيروز". كان هذا التعبير للمعلّم كوتيكو، جارنا في الطابق الثاني الذي انكبّ على كتابة الشعر بعد أن بلغ سنّ التقاعد ولزم منزله. وما إن يؤلّف بضعة أبيات حتى ينزل إلى البهو ليلقيها على مسامعنا ويتحفنا بإبداعه. وكانت رياح الشمال مصدر إلهامه على ما يبدو.

- مَزَّقَ بَردُ الصَّباحِ أظَافِري.
- ولكنّ هذه القصيدة للشاعر إرنستو مورولو، وقد لحّنها مطربٌ وغنّاها يا أستاذنا!
- يا إلهي! لا يخلص المرء من كتابة بيت واحد في هذا البلد حتى يتبجّح أحدهم بأنّ شاعراً ما سبقه على كتابته. يا سادتي، الشعر ليس قطاراً فيه مقاعد يتسابق الركّاب على حجزها ويجلسون عليها بينما يظلّ الآخرين واقفين على أرجلهم. الشعر ليس مسابقة جري ينبغي على أحد المتسابقين أن يصل أولاً دوناً عن الآخرين كي يربح الجائزة. في كل صباح يولد يوم جديد لا يعرف الشعر، ومتى يستيقظ الشاعر، كل صباح، يكتب شعراً جديداً وغير مستهلك.
- حقاً؟! إذن فليكتب أول المستيقظين الكوميديا الآلهية من جديد.

- أنت حكم جائر يا دون غايتانو. اسمع هذا البيت الآخر: لا يَخْجَلُ البردُ مِنَ الظُّهورِ حتّى لو سَطَعَتْ شَمسُ الضُّحى.
- هذا البيت لك يا أستاذنا ولن يسرقه أحد منك. كن مطمئناً.
- الحمد لله.

يقولها الأستاذ متنفساً الصعداء ومبتسماً لأنه أرضانا ببيت جديد أخيراً.

في ذلك الخريف تعرفت على سكان البناية. كنت أراهم يمرّون واحداً واحد من خلف زجاج البهو، وهكذا كنت أحدّد أطباع كل فرد منهم على حدة. ورغم أنّ الشخصيات في كتب دون رايموندو كانت تشدّني أكثر، إلا أنّ هؤلاء خصائصهم واضحة أكثر. فكل واحد فيهم وضع لنفسه دستوراً يميّزه عن الآخرين ليحافظ على هويته وسط هذا الزحام الهائل من البشر القاطنين في مساحة ضيقة. فالوجوه والأصوات والتحيات والعادات كانت تتبارى على أكبر اختلاف ممكن بينها. وكانوا ينصاعون لقانون واحد ويطبّقونه بحذافيره: "كونوا مختلفين حتى تميّزوا بعضكم عن بعض". فإذا وضع أحدهم كناراً على شرفته، سارع الآخر بجانبه على وضع حسّون، وأقبل جارهما في الطابق السفلي على شراء ببغاء. وكان لدى سيدة ميسورة الحال ثلاثة كلاب من الحجم الوسط، تأخذهم بنزهة يومية، وتقودهم بثلاثة مقابض طويلة غالباً ما تلتفّ حول بعضها. وإذ يجلس العجوز، ذاك الذي أتى من أجل زوجته المريضة، أمام مدخل الحارة ليدخّن سيجارة، تصل تلك الكلاب لتلتفّ حوله وتنعقد حبال المقابض على كرسيه، فتحدث جلبة في الحيّ كله. وبعد أن تتابع السيدة سيرها المندفع مع الكلاب نزولاً، أسمع تعليق إحدى الجارت: "هاقد ذهبت ستّ الحسن إلى الصيد".

وكان المحاسب كوموليو تاجراً عاثر الحظ. ينحدر من عائلة عريقة في صنع الأزرار فانهارت أعمالهم بعد وصول السحّابات. وقبل الحرب عمل في بيع البرادات الخشبية، ولكنه اضطر أن يصفّي مشاريعه بسبب منافسة البرادات الكهربائية. فتحول بكدّ إلى تجارة السرائر الصوفية حين كانت السرائر المطاطية في طريقها إلى السوق. يقول دون غايتانو عنه إنه إذا رمى قشة في الماء تغرق، فيما يرمي الآخرون الصخور فتطفو. أكرمته زوجته بوضع توأمين، من جيلي، يدعيان "اوريست" و"بيلاد" تيمناً بالأخوين في الميثولوجيا الإغريقية. كانا متشابهين لدرجة أنّ والديهما لا يميّزان بينهما. وكان المشاكسان يقومان بنفس الحركات وتسريحة الشعر وربطة العنق حفاظاً على هذه الميزة، حتى إن جُرح أحدهما وضع الآخر لاصقاً على نفس مكان جرح أخيه. كانا ينفجران من الضحك معاً، ويوقعان الآخرين في المكائد بفضل الشبه الكامل، بل وكانا يستغلان الأمر فيتبادلان الاسم. وضعا كل طاقتيهما في تلك الكينونة المزدوجة، حتى كاد الواحد منهما ينسى من يكون. وأما الوالد فقد تنازل عن تمييزهما ولم يكن يدعوهما بالاسم، بل وضع لقباً مستعاراً ومشتركاً لكليهما: "أنتما". فيجيبانه على الرحب والسعة. وبات الأولاد في البناية يدعونهما باللقب نفسه. وفي ذلك العام المدرسي انتبهت لوجود فرق بينهما. إذّ أنّ واحداً منهما كان يلدغ حرف السين بدرجة خفيفة جداً. فراح الآخر يغطّي عليه متظاهراً باللدغة السينية أيضاً، لكنه كان يزلّ باللفظ الصحيح أحياناً فانتبهتُ لذلك. قررت أن يكون بيلاد هو المتظاهر بالعلة واوريست هو صاحبها الأصلي، بناءً على أنّ "اوريستو" باللهجة النابوليتانية تعني البقية. إذن فإنّ اوريست تنقصه بقية التشابه المتكامل. فنجحت نظريتي ورحت أناديهما باسميهما في الصف، وباتا يخافان من فقدان تلك الميزة. طلبا

مني الحديث على انفراد، وأقسمت بأنني لن أفشي سرّهما لأحد. وكانت الأسرار والمخابئ تثق بي، لأنني كنت منعزلاً. "سوف نصدّقك"، قال لي أحدهما. كانا يتفوقان عليّ باستخدام ضمير الجمع بعفوية، طالما أنّ اليتيم لا يستخدمه إلا نادراً، فأحب سماعه منهما. ومنذ تلك اللحظة بتُّ أشكّل مصدر قلق عليهما، وصارا يستثنياني من المقالب الاستفزازية، فربحت راحة البال.

وصل يوم الأحد دون أن أنتظره، وانقضى ولم تأت آنا. في الظهيرة كنت في البهو أنهي توصيل شبكة ثانية لأضواء الميلاد لنضعها فوق زجاج المكتب. خرج دون غايتانو ليتنزه، وكانت باحة البناية مليئة بالأضواء البراقة، وأرضيّتها تلمع بفعل الصقيع.

تضرب الشمس زجاج الطوابق العليا فتعكس شعاعها ليتسرّب حتى الأرض. وهذه كانت تقنية نابولي في هندسة زجاج الأبنية، أن يُمرَّر الضوء عبر الانعكاس. فمن لديه نور فائض يحوّله إلى من يحتاجه. للزجاج في نابولي نفحة إلهية سرّها الرحمة. تقصّد صانعوه المهرة أن يحنوا سطحه قليلاً كي يتقاسم الجميع النور. وعند البهو في الأسفل تصل أعمدة الشمس بعشوائية فتكوّن ضفافاً ضوئية يتخللها الظلّ حتى تنتهي في الفجوة حيث نجلس في مكتب الاستقبال. دون غايتانو يقول إنها علامة جيدة، فالشمس تكنّ الحبّ لمن يسكنون في القاع حيث لا يصل وهجها بل ألفتها. إنها تودّ العميان على وجه الخصوص، فتلمسهم بنورها الرقيق وتنير أعماقهم. لا تحبّ من يعبدها ويخلع ثيابه ليجلس تحتها ويسرف ضوءها الكريم في تلوين جلده. الشمس تسعى لتدفئة من ليس لديه ثمن معطف، وإنارة درب من يتعثر في الأزقة الضيقة ويصطدم بجدرانها الخشنة. إنها تستدعيهم ليخرجوا من بيوتهم الباردة، فتداعبهم بحنانها حتى ترتسم الابتسامة على وجوههم من الرضا. "إنها علامة

جيدة. الشمس تحبّك وترسل لك تحياتها الحارة حتى سريرك. والزجاج سلالم الشمس، ينـــزلها الضوء بمحبة كي يصل إليك. وهذه علامة أنّ الشمس تحرسك".

لم أنتظر آنا في الشارع، ولو طرقتْ علـــى البوابـــة لســـمعتُها. أمسكت الخنجر بيدي، وتلّمست المقبض. كان عاجاً صافياً. مـــررت النصل على خدي لأجرّب الحدة، فتذكرت توصيات دون غايتانو، أن أستخدمه للنجاة فقط وليس للعب أو ما شابه. ولم يكن ثمة حاجة للثقة بخنجر، فهو أداة جدية على كل حال. إن عاملته باحترام يقوم بواجبه عند الضرورة. أما إذا جرّدته ممازحاً أو مستعرضاً فقد يفلت من يـــدك في لحظة حرجة لا تُحمد عقباها. كان الخنجـــر ورجـــال الجنـــوب أصحاباً، فلم أسمح لنفسي بالتدرب عليه تحسّباً لوقت الخطر، بل كنت سأرتجل الطريقة المناسبة. فلا ينبغي التفكير بالعنف قبل أوانه. وأعنـــف حركة كنت أقوم بها هي الارتماء بين الأقدام للإمساك بالكرة. ولم تكن الركلة على الأنف عنيفة بقدر ما كان اندفاعي. ولو حسبت الوضـــع بشكل أفضل لما أقدمت على الكرة بذلك الأسلوب. وهذا ما ســـأفعله بالخنجر. إن حدث طارئ خطير، عليّ أن أجد الحركة المناسبة لإنقـــاذ نفسي.

عاد دون غايتانو وبدأنا نركّب الأضواء على باب البناية وفـــوق زجاج البهو. وبدأت الأضواء المتناوبة تغمز كالعين لاقتراب الأعيـــاد. وهذا قام دون غايتانو بما عليه كتجهيز للاحتفالات، ورفض أن يركّب مشهد ميلاد المسيح قائلاً إنّ هذا يشتريه من لديه أطفـــال وينـــوي أن يشرّبهم حب الدين منذ الصغر. أما نحن فلم تكن لدينا عائلـــة. ومـــن كان له منـــزلة اجتماعية مرموقة يستغلّ إحياء الأعياد ليتبـــاهى أمـــام الناس بثرائه فيشتري المأكولات والألبسة بأسعار باهظة. ومـــن لـــيس

لديه شيء كان يستدين ليظهر أمام الناس أنه غنيّ أيضاً. السيد لاكابا كان يأخذ عائلته إلى السينما بالتاكسي. ويأتي يتبختر أمامنا فيروي علينا حضوره لحفل أوبرا في المسرح الوطني، وأنه رأى العمدة وقائد الشرطة وكل أبناء الطبقة المخملية. فيسخر منه دون غايتانو على أنه لم يفهم كلمات الأوبرا دون شك ولا موسيقاها ولا يذكر حتى اسم مؤلفها. ثم يخبرنا بأنّ زوجته اشترت كلباً جميلاً واحتاروا ماذا يسمّونه. وكنت أسأل لماذا يستهزأ الجميع بالسيد لاكابا وهو كان فقيراً مثلهم.

- إنّ الفقير يشتري ثياباً جديدة ما إن يصبح ثريّاً، ويلبسها ظنّاً منه أنها ستغيّر شخصيته. لكن النقود، لسوء حظّه، لا تغيّر إلا المظاهر. ولاكابا واحد من هؤلاء، كلّما أراد الصعود وقع. كان الجميع يحترمه عندما يطأطأ رأسه حتى الأقدام ليأخذ مقاس حذاء أحد الزبائن. وكان عمله شرفاً له. يقال إنّ للنقود رائحة كريهة ونتنة.

في مطلع الشهر تمرّ السيدة ساكرافيا إلى المكتب لتسأل عن الحوالة المالية التي يرسلها أخوها من أمريكا إليها، فتعيش بنصفها وتدفع الإيجار بالنصف الآخر بتأخير معتاد ومتعلق بوصول الحوالة. ويعكّر وجهها المتجهم أجواءنا، وتنزع رائحة الثوم المنبعثة منها شهيتنا عندما تمرّ في ساعة الغداء. وهذا ما يدفع دون غايتانو إلى الإسراع بتسليمها الحوالة حالما تصل.

رأيت آنا ثانية عند خروجي من المدرسة. كانت جالسة في المقهى أمام المدرسة مع صديقتها الشقراء، في يوم مشمس تخرج فيه حتى الزواحف والحشرات للتلذذ بضوء النهار ونسيم الشرق بعد هبات الشمالي. والمقاهي تفرد الطاولات في الهواء الطلق. أشارت إليّ بتحية

وَدَعتْني إليها، فخجلت من الظهور أمامهم باللباس المدرسي. اقتربت منهما.

- أعتقد أني سأستأجر تلك الشقة. في الأيام القادمة سآتي ببعض الأغراض. هلّا ساعدتني حضرتك؟
- عند الضرورة.

بقيت متجمداً و لم أستطع قول شيء آخر. ودّعتُهما مرتبكاً وسمعتُهما خلف ظهري يرددان ما قلت ويضحكان. "عند الضرورة". حقاً، ما هذه العبارة التي تفوهت بها؟ لم أكن أنتظر لقاءها، ثم إنها أربكتني بكلمة "حضرتك". وكانت صيغة الاحترام مبالغاً بها، فضحكت على نفسي أنا أيضاً. قد يصبح المرء مدعاة سخرية للآخرين دون أن يكون محدث نعمة مثل لاكابا. وربما كنت مضحكاً حتى في البهو عندما تقابلنا أول مرة كما كنت أمامها في المقهى. لكن اللقاء لم يكن محض صدفة، ولابدّ أنها اختارت المكان والزمان واصطنعت المفاجأة. أكانت تريد طمأنتي بعودتها؟ سألتُ نفسي وسمعتُ أفكار آنا تجيب: "أجل". اصطدمتُ برجل مسنّ يقف على حافة الرصيف. فعلا صوته واعتذرت منه مباشرة. وسمعت ضحكاتها ثانية في أعماقي. ولماذا كانت تتظاهر بالمصادفة؟ هل كانت تلك الشقراء تراقبها؟ لم تصلني أية إجابة. هل بدأت أقرأ الأفكار مثل دون غايتانو؟ هل وصلتني فكرتها ووصلتها فكرتي؟ جربّتُ مرة أخرى. لا شيء. قُطِع الاتصال. في بعض المرات ننجح بتحقيق خطوة ما دون أن نعرف الكيفية، وإذا كررناها لا ننجح. فالأمور تحدث لي بالخطأ. حاولت بناء الحالة مجدداً: كيف كنت في اليوم ما قبل السعادة؟ كيف كنت في الخمس دقائق قبل أن أطلب من الفتاة تأكيداً واصطدمتُ بذلك الرجل؟ فازداد جهلي بالموضوع حتى فشلتُ في صياغة المشهد ثانية.

وصلت إلى بهو البناية حيث كان دون غايتانو جالساً على الطاولة.

- مرحباً. لقد أحضرت شرائح البكالا[1] التي تحبّها.
- ولماذا تخبرني؟ لقد شممت رائحتها من عند البوابة. تعال اجلس.
- وأنا اشتممت رائحة الباستا بالبطاطا من عند البوابة أيضاً. رائع.

نظّفت يديّ من رائحة السمك، وخاطبته من عند المغسلة: "لقد رأيت آنّا اليوم. تقول إنها تريد أن تسكن هنا". فأجابني "ليس صحيحاً".

"ما الذي تريده الفتاة، برأيك؟". جلست على الطاولة وبدأنا نأكل. "آنا تريد أن ترى الدماء". لم أتمالك نفسي، فسألته وأنا أمضغ الطعام: "وماذا تفعل بها بعد أن تراها؟". أنهى لقمته وتجرّع النبيذ، وقال: "الدم هو الحقيقة. لا يكذب عندما يخرج ولا يعود إلى الوراء. وهكذا يجب أن تكون الكلمة أيضاً، بعد أن تقولها لا تستطيع أن تسحبها. وآنا تريد أن ترى ظهور الحقيقة".

كان يتحدث بصوت منخفض، ويقول كلاماً بسيطاً لكنني لم أفهمه. ففضّلت أن أغلق فمي بالباستا والبطاطا. كان واضحاً أنّ السعادة هي الحقيقة بعينها وثمنها الدم. "آنا ستعود" قلت قاصداً أنني عاجز عن فعل أي شيء ومسحت ما تبقّى من الصحن بقطعة الخبز. وأومأ دون غايتانو برأسه موافقاً. "كانت جميلة خارج المدرسة.

---

1 (il Baccalà) وجبة سمك رائجة في جنوب إيطاليا، تحضّر عادةً من شرائح سمك القدّ المتوسطيّ، وتُمزج بالطحين ثم تُقلى بالزيت، وتُضاف حسب الرغبة على أنواع الخضروات المطهوة. المترجم.

ترتدي جوارب شفافة وشعرها يهيم مع الشمس. إنها مهتمة بـــي، وأنا ليس لي قيمة". فاحتدّ مقاطعاً: "لا تقلل من شأن نفسك أمــام أحد. أنت بضاعة جيدة وسوف يتبيّن ذلك". كان يرفع معنويـــاتي. "من ينشأ لوحده في غرفة صغيرة ويتمتع بأخلاق حســنة بــالفطرة ستكون حياته مميزة. عليك أن تدافع عن هذه الحياة حتى لو مرّت في الدم".

لم أتأثر بكلماته. قبل أن أعرف آنا كنت أظنّ أنّ الدم على مــا يرام وهو يدور في ظلام الجسد، وليس من مصلحته الخروج لينشــف تحت الضوء، بل ليس له أية فائدة خارج الجسم. وحينها فكرت أنه قد ينفع آنا، ربما تتعافى إذا رأت أحدهم ينــزف أمامها. وكنت واثقاً من استعدادي لموقف كهذا ولا يهمني متى سيحدث. وصل إليّ صوت آنا مجدداً: "أجل". فعاهدت نفسي أن أقول "أجل" أكثر من "كلا"، وأن أطيع هذه الكلمة لتحكم حياتي. وحتى لو اضطررت لقــول "كــلا"، فستكون في خدمة "أجل". هل سأبخل بدمائي إذا احتاجتــها الفتــاة؟ كلا.

- خطيبها المافيوزو خرج من السجن بموجب العفو قبيل أعياد الميلاد.
- قلت لي إنّ لها خطيباً. يسعدني أنه حرٌّ الآن.

أخذ دون غايتانو ينظّف الطاولة وأنا أجلي الصحون. قال لي:

- على أحدنا أن يصعد إلى الأرملة. هل تريد الذهاب أنت؟
- هل هي من طلب ذلك؟
- لا تُكثرْ من الأسئلة عندما يتعلّق الأمــر بالنســاء. أتريــد الذهاب أم لا؟

هبطت الحرارة من معدتي إلى الأسفل، فقلت متحمّساً: "أجل!".

كانت أشهُر العناق الحارّ قد انقضت. ومرّت آنّا واشتهاؤها لي أيضاً، كأنها أكلت فاكهة طازجة وبصقت لبّها. بحثتُ عن التغيرات في المرآة. ظلّت عيناي تقدحان ووجهي على حاله مطاولاً تغلب عليه الدهشة. وخفّ التهاب الأنف قليلاً، ومازالت آثاره الداكنة على الوجنتين. وتحددت معالم الجسد أكثر، وأخذت عظام الرئتين بالنتوء لتكمل تفاصيل الصدر. كما كانت عضلات المعدة ترتسم صغيرة ومتناسقة. صعدت إلى الأرملة. وفتحت لي الباب مرتدية ثوباً منزلياً مثيراً. كان الجو دافئاً عندها بفضل المدفأة. أخذتني من يدي وسحبتني إلى الغرفة. فاستعجلتني وعانقتها بشدة. وبدلاً من الذهاب إلى السرير دفعتها إلى الجدار، ودون أن ننزع كامل ثيابنا مارسنا الجنس واقفين على الأقدام. وأظهرتُ جلّ طاقتي في امتطائها وقدت الحركات نيابة عنها. فاستسلمتْ لفحولتي وتلذذت بالوصل. ثم وقفت على ساق واحدة وأرخت الأخرى على كتفي. وبعدها رفعت كلتا ساقيها لتعلّق قدميها على ظهري. وبقينا على هذه الوضعية حتى بلغنا هزة الجماع فحملتها من الجدار وأسندتها إلى السرير. داعبت شعري المتصبب عرقاً، وقبّلت وجهي كله. ثم حضّرت القهوة وجاءتني بها إلى السرير. لم تكن قد اعتنت بي قبلئذ. رأيت منها ابتسامة طيبة لم أرها ترتسم على وجهها يوماً. كان عناقنا صامتاً، فيبدو أنّ الابتسام المتبادل حلّ مكان كلمات العشق والإعجاب. شربتُ القهوة كرجل محترم، وساعدتني في حمل العدة. ولم تغلق الباب خلفي حتى وصلت إلى آخر الدرج.

حدث شيء ما جعل الجيران يغيّرون تعاملهم معي، إذ غمرني احترامهم وتقديرهم بشكل غير مسبوق أعجز عن وصفه. وشككت للوهلة الأولى أنهم أثنوا على أدائي مع الأرملة. ثم أزحت هذه الأفكار الممسوسة عن مخيلتي، فأنا لم أكن أنتظر احتراماً من أحد على أي

شيء. لقد حصل أمر غريب في البهو، رأيت زجاج المكتب متشظياً على الأرض، ودون غايتانو برفقة صانع الزجاجيات الذي يأخذ المقاسات ويساعدهما الأستاذ كوتيكو. لم أسأل عن السبب إذ كان ثمة غرباء. ترك دون غايتانو لي أمر المكتب وذهب مع الصانع. مرّ الجيران وألقوا عليّ التحية برفع القبّعة كما يفعلون مع دون غايتانو عادةً. ومرّ الكونت مبتسماً: "يا عزيزي، لقد فزت عليّ مباراة في السكوبا ويجب أن أردّها لك. لا تنس حضرتك". الكونت يخاطبني؟ وبصيغة رسمية علاوة على ذلك. فاحترت في أمري وكان النعاس يغلب على جسدي كله. لكن صانع الزجاج عاد لوحده فساعدته في حمل الزجاج الجديد وتركيبه مع الجبْس. وكان منحنياً قليلاً. وحين عاد دون غايتانو وجد الزجاج مركّباً والمكتب مرتّباً. فسألته عمّ حدث بالضبط.

- ألم تسمع شيئاً عندما كنت عند الأرملة؟
- لا لم أسمع شيئاً.
- لقد جاء خطيب آنا، المافيوزو، يبحث عنك. وكان يهدد غاضباً ويريد أن يعرف أين أنت. توقّف الناس على صراخه، فقلب الطاولة وضرب الزجاج بيده التي يلفّها بقفاز. صاح أحدهم "الشرطة، الشرطة" فهرب. وقال إنه سيعود ليقتلك حيثما يجدك.

فصرختُ بأعلى صوتي، وأنا مصعوق وغاضب لأنه تلقّى التهديد بدلاً عني:

- وهل أصابك بأذى؟ هل اعتدى عليك أو أساء إليك؟
- لا لم يصبني بشيء، عدا الطاولة والزجاج.

فهمت حينها لماذا صار الناس يقيمون لي اعتباراً بين ساعة وأخرى بعد أن انتشر الخبر. دون غايتانو سألني عمّ أنوي فعله. "لا

شيء. لن أتزحزح من مكاني. هنا تجدني آنا وهنا يجـــدني خطيبـــها".
كانت الكلمات تخرج من تلقاء نفسها لتقرر عني. ولـــيس بإمكـــاني التراجع عنها مادمت قد قلتها. وعندما سمعت وقعها اقتنعت بصحتها. أهذا هو الدم الذي تريد آنا أن تراه؟ دماء شابين يتعاركان لأجلها؟ لقد أصاب دون غايتانو بما قال مسبقاً، لكن المرء لا يعـــي الأمـــور إلا إذا وقعت على رأسه. ابتسمت لدون غايتانو ابتسامة شكر لأجل الخنجر. أومأ برأسه موافقاً بجدية وارتباك. فقلت له: "اطمئن. لـــن أســـتخدمه الآن. فلنكمل يومنا بعفوية. سأحضّر البطاطـــا والبصـــل والطمـــاطم وأسكب الصلصة فوق البكالا. ثم نلعب السكوبا معاً".

بدأت بتحضير العشاء بمفردي، وكنت أرى ما حولي بوضـــوح. هبط ظلام ديسمبر قبل وقته، وصدرت رائحة الشمع والبلاستيك مـــن لاصق الزجاج الطازج. ثم فاح عبق البكالا الزكي، وباتت أفكـــاري كالغسيل المنشور. وكانت أوراق السكوبا تنصحني بكيفيـــة لعبـــها، فاحترت في ما إذا كنت أخمّن نقلات الخصم أم كان هو مـــن يرســـل أفكاره إليّ.

- هل تستطيع أن تنقل أفكارك لشخص آخر يا دون غايتانو؟
- لا. أنا أستقبل الأفكار فقط.
- أراك شارداً هذا المساء. أكاد لا أعرفك. تركت لي ســـبعة الديناري.
- لقد أجبرتني على تركها، ولم أشرد أساساً. إنك أنت مـــن يلعب جيداً اليوم، ولا أظن أنني سأغلبك.
- هل أفسد ذلك الوغد مزاجك؟
- إنني نفس اللاعب في كل مساء. لقد شدّ عودك ولم تلاحظ ذلك.

حقاً، و لم أتفاجأ حين غلبته في مباراتين على التوالي. و لم ألحظ أي فرق في الأمر عن تلك المباريات التي كنت أخسرها. نهضت لأقلّب البكالا في الوعاء مع باقي الخضروات. نقر أحدهم على الزجاج، فنهض دون غايتانو واثباً وذهب إلى الباب. وخرج إلى الرجل بدل أن يُدخله. كنت أنظر إليهما من خلف الزجاج بينما أتذوق الطبخة. لم أستطع أن أرى الوجوه، لكن الرجل كان يرتدي معطفاً أبيض أنيقاً ويحرّك يديه بحزم وهو يتكلم. أمّا دون غايتانو، يداه خلف ظهره، وينحني إلى الرجل ليسمع ما يقول. أنهى الرجل حديثه بيد جازمة، أخرج محفظته فأمسك دون غايتانو ذراعه، فأصر الرجل على إعطائه النقود. اضطر أن يأخذها بعد أن غمسها في يديه. ربما كانت النقود من أجل الزجاج المكسور. وضع الرجل يده على كتف دون غايتانو، وتعانقا. وعندما عاد، بوجه مغلوب على أمره، سألته بنظرة عن الخطب، فرمى النقود على الطاولة. "هذا ما استطعت تدبيره: استرداد ثمن الزجاج وحكمة زعيم المافيا في حيّنا وما حوله: (مسألة الشرف حسّاسة أكثر من الزجاج. لكنّ الزجاج له ثمنٌ يُعوَّض. أما الشرف فلا يقدّر بثمن، ولا يحقّ لأحد التدخل فيه)". قال الجملة بلهجة نابوليتانية أصيلة، كأنّ اللهجة مخصصة لقول الحِكم والعبر.. أفضل من خطبة الأحد باللاتينية.

- لماذا طلبت أن يحلّوا المشكلة يا دون غايتانو؟ انس الأمر، سوف نعالجها فيما بيننا ولن يصاب أحد بمكروه. لا تشغل بالك.

تذوقنا بكالا عظيمة في ذلك المساء، وشربنا النبيذ وروى لي دون غايتانو عن قصص الحرب التي تستحوذ سمعي وتضرم قلبي.

لغّم الألمان مجاري الصرف ليفجّروها، وأسر الثوار عدداً منهم فاعترفوا بأماكن العبوات المتفجرة أملاً في أن يُطلق سراحهم. فكُلّف دون غايتانو وآخرون بمرافقة الأسرى لتفكيك الألغام.

- كان الأهالي قد حازوا على السلاح من مخازن الشرطة. وفي بعض المرات كان رجال الشرطة أنفسهم يوزّعون السلاح من دافع وطني ونكاية بالألمان، وأحياناً أخرى كان الخوف من البطش النازيّ يمنعهم عن فعل ذلك، مما أرغم الثوار على الاستيلاء على المخازن وبأسرع طريقة ممكنة. فالجبهات تُفتح علينا من كل الجوانب، وسوى النازيين خلف ظهرنا فاشيون يطلقون النار من بيوقم لقمع الجموع الثائرة. فكانت هنالك حرب شوارع، على سلالم البنايات وفوق الأسطح ناهيك عن الإعدامات الميدانية. أسر الألمان واحداً منا ووضعوه على الجدار لإعدامه. وفي تلك اللحظة يُطبق الثوار على الألمان من كل الجهات فيصبحون محاصرين تحت النار. واستطاع الثائر البطل أن يلوذ بالفرار. يدعى اسكيتانو، وكان صديقي.

كنت أسمع قصص المدينة وأشعر بانتمائي إليها. فكان دون غايتانو يمنحني جنسيته النابوليتانية جرعةً جرعة، من تاريخ أفرادٍ توحّدوا ليصبحوا شعباً. وكان هذا التاريخ شهياً كنكهة البكالا مع أنّ صفحته قُلبت بسرعة. يولد المجد من ثورة أناسٍ قاموا في وجه الظلم كعاصفة تستمر ثلاثة أيام وتترك في الرئتين هواءً نظيفاً.

- أوقفت حواجز الترامات التي أقمناها في شارع فوريا تقدّم العربات الألمانية لساعات. واستطاعوا أن يقتحموه في النهاية لكنهم لم يصلوا إلى شارع روما. فكان الرجال

والشبان يهبطون من التلال ويتسللون بين الحارات ليرموا بالقنابل والنيران داخل سلاسل العجلات. فانسحبت المدرعات عندما تيقّنتْ أنها لن تستطيع فعل شيء حيال هذه الأرواح المتمردة.

- كيف تنطلق الثورة يا دون غايتانو؟
- كان هجوم اليوم الأول ضد شاحنة ألمانية في طريق عودتها من نهب مصنع أحذية. في أواخر أيلول بدأ الألمان بسلب ما استطاعوا من المحلات بل وحتى الكنائس. فاندلعت المعركة الأولى بهجوم مباغت على إحدى شاحناتهم المحمّلة بالأحذية.
- لكن السفن الأمريكية كانت على مرمى النظر، والألمان يدرسون طريقة للانسحاب. فلم المخاطرة والعجلة إن كان التحرير وشيكاً؟.. في روما، بعد بضعة أشهر، آثرت الناس أن تنتظر مع أنهم واجهوا نفس الظروف القاسية.
- لم يكن انسحابهم مؤكداً، بل كانت لديهم قوة كافية ليقاوموا. وكانوا قد تجهّزوا جيداً للدفاع ضد الإرساء على شواطئ المدينة. لقد حضّروا أنفسهم لمعركة كبرى. ثم إنّ الغضب كان ينمو والرجال المختبئون تحت الأرض بين الأحجار البركانية يتوقون للخروج. ولا تنس مسألة الإجلاء القسري للسكان على الشريط الساحلي بطول 300 متر عن البحر، والمدينة كلها تقع على الشاطئ. لقد أسفر تفريغ هذه المساحة عن مئة ألف نازح في يوم واحد لا يعرفون أين يمكثون في العراء أم في الخيم. أجل، كان بإمكاننا الانتظار نحن أيضاً، نطأطئ رأسنا بذلّ ونعدّ

الساعات. لذا لا أعرف لماذا قفزنا مثل الجراد في الشوارع كلنا معاً. إنّ ما تكرّس نفسك لفعله في لحظات عصبية كتلك لا يعود كله عليك، بل يعود أكثره على ذلك الجسد الواحد الذي يدعى شعباً. ومن هو هذا الشعب؟ إنه الناس من حولك الذين يفعلون ما تقوم به أنت أيضاً. في لحظة ما تكون أمام الجميع، وفي لحظات أخرى يتجاوزونك، يسقط أحدهم قتيلاً، فيكمل الآخرون باسمه ما بدأه الجميع. الثورة تشبه الموسيقى إلى حد ما. كل واحد يعزف على آلة معينة والنتيجة ليس مجموع العازفين بل الموسيقى بحد ذاتها. الثورة عندما يغضب البحر فتهوج الأمواج. الثورة عندما يجعلك الجوع ترى الخبز مرمياً على الأرض فتتركه لغيرك. الثورة الأم التي تساعد ابنها في درب الخلاص، والحرقة التي تجعل العينين تذرف دماً لا دموعاً. لا أعرف كيف أشرحها. إذا وجدت نفسك في خضمّ ثورة ما فانخرط فيها لتعرفها. قد تشبه هذه التي أقصها عليك بما أنّ الثورات الشعبية ضد سياط الطغاة وهمجية الاستبداد أسبابها واحدة.

كنت أتخيل الثورة مشهداً مشهد كقيامة الجسد الميت. في البدء تتشنج الأعصاب، ثم تحرّك إحدى العضلات إصبعاً فيرتعش، لتمتد الحياة حتى تشمل كافة أنحاء الجسد. وبعد أن ينهض الجسد كلياً يتذكر أنه سمع صوتاً خافتاً كان يدعوه للتمرد. الثورة كشحنة طاقة في جسد مطفئ. ولكن ما الذي أخمد هذا الجسد في الأساس، وحوّله إلى لعبة خشبية؟

لم أحصل في حصص المدرسة كلها على درس دقيق كحكايات دون غايتانو. كانوا يدرّسوننا حتى الحرب العالمية الأولى، ثم ينتهي العام

الدراسي وينتهي معه القرن العشرون. ما حدث أنّ شاباً أطلق النار على الدوق فانزلق العالم بأسره في أتون حرب ضارية. وانقسم إلى فريقٍ وقف بجانب الدوق وآخر وقف بجانب الشاب. وكانت إيطاليا حليفةً الدوق قبلئذ، ولم تكترث لأمر الحرب حين اندلاعها، لكنها تدخلت لصالح فريق الشاب. وانتصرنا رغم أنّ معاركنا لم تعدو على حفر خندق واحد، حيث ينبغي بنا أن نبقى واقفين متيقظين. هل كان اختيارنا للجانب الخاطئ في الحرب العالمية الثانية ما أردانا في تلك الحفرة أمواتاً؟ لم أجرأ على تخيّل العنفوان يؤول إلى لعبة خشبية، بل إنه انتقل إلى جيل من يكبرني سناً. سرى التمرد في أجسادهم فانتفضوا، رغم كونهم الجيل الأتعس حظاً في كل تاريخ العالم.

- كنت أعرف شاباً بلغ من العمر عشرين عاماً عند بداية الحرب. كان رائعاً وفقيراً وحسن النوايا، ومطّلعاً ومولعاً بمواده، يحفظ أبياتاً كثيرة لدانتي عن ظهر قلب. كان يعطي دروساً خاصة للطلاب كي يعيش. فعشق فتاة كان يذهب إلى بيتها ليعلّمها اللغة والرياضيات، ولم يُكشف أمر الحب إلا فيما بعد. كان يلبس ثياب الحداد حزناً على أبيه المتوفى، يرتدي معطفاً أسود قديماً رثّ الكمّين. أصابه الغرام وكان حزيناً لأنه لا يستطيع أن يلبس ثياباً ملونة. في حزيران 1940 تدخل إيطاليا في الحرب، ويتجند الشاب في الجيش بملء إرادته. لم ينتظر أن يُدعى للخدمة، ولم يستغل كونه المعيل الوحيد لأمه الأرملة. بل ذهب متطوعاً إلى البحرية، وحينها استطاع أن ينزع عنه ثياب الحداد، سعيداً لأنه لبس البزة الزرقاء في الدفاع البحري. وكان مؤمناً بالوطن وواجب الدفاع عنه لكنه متحمس لارتداء تلك البزة الملونة

أيضاً. فصار يلبسها حتى عندما يذهب إلى الدروس. كانت تلك الفتاة تكتب مواضيع الإنشاء، فيحتفظ بها. وقد أخبرها والدته بذلك عندما جاءت الفتاة لتعزّي أمّ أستاذها. سقط قتيلاً في أول معركة بحرية خاضها على رأس تيولدا في نوفمبر للعام نفسه، وعرفتْ أنه كان يحبها بعد أن رحل. كان وجهه أسمر اللون يتّصف بالجدية والإرادة القوية. غمرته البزة الزرقاء بربيع الشباب الذي كان يتوق إليه، وسرعان ما حرمته منه. هكذا يحدث لمن يلقي بنفسه في جحيم الحرب وويلاتها. وإياك والظنّ أنّ الأمر بلا قيمة.

- لن أظنّ ذلك يا دون غايتانو، وسأفعله بسرور من أجل آنّا.

مع نهاية الثورة، سارت أول شاحنة أمريكية على الكورنيش يسبقها أحد الثوار من فرقة القناصة وهو يصرخ: "لقد انتهت الحرب، لقد انتصرنا". ومازالت المدفعية الثقيلة الألمانية متمركزة في كابوديمونتي لتغطية الانسحاب. ثم بدأت ظاهرة التهريب مباشرة، مع الأغراض الأمريكية التي تخرج من السفن، فتختفي من المخازن بنقلتين فقط رغم وفرها. وكان الرجال يستخدمون الصرف الصحي لتمرير تلك البضائع. رأى دون غايتانو في وسط سانتا لوشيا مجروراً يُفتح لوحده، فيظهر رأس أحدهم لينظر حوله. اقترب ليساعده على الخروج فأجابه المهرّب: "المعذرة يا صاح، لقد أخطأت الطريق". ويعود ثانية إلى الأسفل ويغلق المجرور.

استغرقت تلك السهرة أكثر من أي واحدة أخرى، وكأنّ دون غايتانو يسلّمني إيداعات المدينة، وكأنّ التاريخ يشبه التركة. فباتت حكاياته ذكرياتي، وأدركت أصلي وفصلي. لم أكن ابن البناية فحسب، بل ابن المدينة كلها. ولم أكن يتيم الوالدين، بل فرداً من هذا

الشعب. أنهينا أمسيتنا عند منتصف الليل. ونهضت من الكرسي فإذ بي كبرت وطالت قامتي وعلا جبيني. رفعني التراب بضعة سنتمترات جديدة، فانتميت لجذور هذه الأرض. وكنت واحداً من أهل نابولي لأني أعشقها، وأشتعل غيظاً وعاراً لأنني ولدت متأخراً.

وحينما دخلت إلى غرفتي فكرت في يوم السبت، السابق لوصال آنّا. كان هذا اليوم، السابق لشيء ما، أجمل بكثير.. لأنني أحسست فيه بنشوئي وانتمائي، وربحت مباريات السكوبا واحترمني الناس بشكل مفاجئ وشربت قهوة الأرملة. هل أقلل هكذا من شأن آنّا؟ كلا، بل كنت أضعها عنواناً لكل شيء. فكل الأيام السابقة واللاحقة لشيء مهم في حياتي كانت تتعلق بها. وبفضلها كنت أقول "أجل" بقوة على أي شيء. فنمت نوماً قريراً. وعندما استيقظت، تفقدت الخنجر أولاً. وقلت لنفسي إنّ وقته لم يحن بعد. كان دون غايتانو ينظّف الدرج، فألقيت التحية عليه. وفي الحارة ألقى أحدهم التحية عليّ رافعاً قبّعته.

أصغيت إلى الدروس بعمق في المدرسة، وانتبهت إلى أهمية الأشياء التي كنت أدرسها. من الجميل أن يعلّم المرء عدداً من الفتية، جالسين يستمعون إليه، كلهم آذان صاغية، ويلقطون المعلومة في الهواء وهي تطير نحوهم. وكم جميلة هي القاعة التي يجتمع فيها البشر طلباً للعلم. وكم جميلٌ هو الأوكسجين الذي يجري في العروق فيحمل، لكافة الجسد، الدماء والكلمات. جميلةٌ أسماء الأقمار التي تحوم حول كوكب الزهرة. جميلةٌ صرخة البحّارة الإغريقيين: "يا بحرُ يا بحر" إبان عودهم للديار. جميلٌ أن يكتب كسينوفون مغامراته الشيقة ليخلّدها. وجميلةٌ حكاية بلينيوس عن انفجار بركان الفيزوفيو. كانت كتاباتهم تمتص مآسيهم، فتحوّلها إلى مادة سردية ليسهل تناقلها وتجاوزها بالنتيجة.

كانت الشمس تدخل في رأسي وأنا داخل القاعة، والنهار مشمس في الخارج، كأنّه يأتي من أيار لينتهي في ديسمبر.

عدت صوب البيت ومازلت أفكر في الدروس. كان للمدرسة العامة طابع مدني، فهي مجانية تمنح فرصة لشابٍّ مثلي أن ينال العلم. كنت أكبُر على مقاعدها ولم يخطر لي مرة أن أفكر بالجهد الذي يبذله المجتمع من أجلي. كان التعليم يعطينا أهمية نحن الفقراء، فالأثرياء كانوا سيتعلّمون على أية حال. المدرسة تعطي وزناً لمن ليس لديه حجم، فتحقق المساواة. لا تُنهي الشقاء، لكنها تسمح بالتعادل ضمن جدرانها، الفوز والخسارة يبدآن خارج أبوابها.

مررت عند دون رايموندو لأعيد إليه ديوان الشاعر النابوليتاني المفضّل عندنا، سالفاتوري دي جاكومو. قال لي بابتسامة هنيئة إنه حاك من لهجتنا الجميلة أروع أبيات الشعر. فأجبته: "أنت على صواب يا دون رايموندو. أعجبني تصويره لهبوط بساط من السماء إلى الأرض، يجمع الفقراء ويحملهم ليأكلوا في الجنة. لقد تذوقت طعم المنّ والسلوى في الباستا بالبطاطا التي يحضّرها دون غايتانو". وتبادلنا الآراء حول الكتاب كما أفعل وإياه دائماً. ولم أستعر من عنده كتاباً جديداً كالعادة، فاستغرب. وتذرّعت باقتراب الامتحانات لكنني لم أكن واثقاً من إعادة الكتاب إليه لو استعرته حينها.

كنت أمشي بخفة صاعداً من المدرسة التي تقع في ساحة واسعة قرب البحر. وعند مدخل الحارة صادفت العجوز، الذي ذهبت لأعالج زوجته المريضة. تصافحنا بحرارة، وربما أراد أن يشكرني ويقبّل يديّ أيضاً. "لا تذهب، إنه ينتظرك". أبقاني واقفاً، يدفعني لأعود إلى الوراء. ولم يكن خلفي أي وراء ممكن، لابدّ أن أذهب إلى مكاني لأواجه مصيري. سألته كيف حال زوجته، فترك يدي لينزع القبعة عن رأسه

ويشكرني: "إنها بصحة جيدة، وهذا بفضل مساعدتك". فانتهزت الفرصة لأتخلّص منه وأكمل طريقي، فتبعتني كلماته: "لا تذهب، حباً بالله، لا تذهب".

لم يصادفني أحد على طول الطلعة إلى زقاقنا. فتحت البوابة، فرأيت آنّا بوجهي عند البهو. "كنت أنتظرك أيها الخسيس"، جاءني صوت حاد كالسهم من عمق الباحة. "أما أنا فلست أنتظر أحداً" أجبته وأجبت نفسي أيضاً. مازلت أرمق آنّا وأخطو مقترباً إليها، ابتسمتُ لشعرها الكستنائي المتألق. "كنت أنتظرك"، أعادها بحدة أكثر. و لم يكن هنالك من أحد غيرنا نحن الثلاثة. هدوء تامّ. ظلام تامّ. وضعت الكتب على الأرض أمام باب المكتب، وآنّا تنظر إليّ مذهولة بعينين متسعتين. كانت أعصابها المتوترة سرّ جمالها، وربما سرّ جنونها أيضاً. قلتُ لها: "ها أنذا" وتجاوزتها. أعجبني الفراغ الذي أحاط بنا، إذ لم يعط مجالاً للشرود.

"ها أيها القذر! أتريد أن تتقدم أم آتي وأجرّك من أذنك؟".. كان يريد أن يُسمع الجيران وليس أنا والفتاة فحسب. يتبادل الفتية الشتائم وألفاظ الوعيد، التي تعلّموها في الشارع، خارج المدرسة.. سأفعل بك كذا وبأمك كذا.. لم يكن يعجبني هذا النوع من الشجار الاستعراضي.

مشيت نحو الباحة برأس منخفض. كان صاحب الصوت في وسطها، فرفعت عينيّ شيئاً فشيئاً. رأيت أولاً حذاءه الجديد وفائق اللمعان، سينال تقدير لاكابا بلا شكّ. ثم بنطاله المكوي، ثم ما تبقّى منه: كان يرتدي بدلة رسمية، كأنه ذاهب للصلاة يوم الأحد، وربطة عنق، وزهرة على صدره أيضاً. شارب أسود، عينان غائرتان وشعر مطليّ برطل من دهون التثبيت. تبّاً، ما هذا الذي اختارته آنّا؟

رفعت بصري إلى سماء أيار في أواخر ديسمبر، ثم نظرت إلى عينيه بحزم و لم أزحزح عينيّ عنهما أبداً. كان يحمل خنجراً يقلّم به أظافره. اقتربت إليه خطوتين فانتبهت أنني أطول منه. الشمس لا تصل إلى الأسفل، لكنّ أشعتها تنعكس بين الزجاج مخلّفة أعمدةً ضوئية. راودتني فكرة دون غايتانو، أنّ الشمس تحميني بنورها. لم ألحظ دخول الفتاة إلى الباحة وأنها كانت خلفي. وبينما كنت أُخرج الخنجر من المعطف راودتني فكرة أخرى، فتركته في محلّه.

"سوف أقتلك أيها الحقير" صرخ واقترب. فأخرجت الخنجر وأمسكته عند مركز ساقيّ، أمام مثانتي، بوضعية منخفضة، وحدّه مصوّب إلى الأرض. قام بهجمة قصيرة، ثم هجمة أطول. وأنا أنتقل برشاقة تارة إلى الجانب وتارة إلى الخلف. لم أهاجم بعد، كان عليّ أن أحترم دوره في الهجوم وأدافع. انتبهتُ لوجودها قربنا، كانت أنفاسها أعمق من أنفاسنا. وكنت أميل مع عقارب الساعة على إثر كل هجمة، لأدور حول الباحة. فنفد صبره وهجم مباشرة وهو يصرخ. ارتطم خنجره في ساعدي الأيمن، وخنجري في أسفل صدره. وداعاً أيتها الثياب الفاخرة. اتسخت بدلته بأول قطرات من دمنا، وتمزّق كمّ معطفي. صاحت آنا بصرخة مبحوحة. وبينما كان ينظر إلى بدلته، انتهزت الفرصة لأتحرك إلى نقطة معينة في الباحة، وإحدى الجارات تلطم فوقنا: "يا ويلي سوف يقتل الواحد الآخر. أما من أحد يوقفهما؟!". فتح كل الجيران شبابيكهم عدا السيدة سانفيليشا، وقطعت الدماء عزلتنا.

شعر بالإهانة بعد أن رأى ثيابه اهترأت فاستشاط غضباً وصرخ: "سوف أقتلك الآن أيها النذل". تصارعنا بأذرع مفتوحة لاختبار العزم، ورفعتُ قامتي فصار تحتي. رفع رأسه لينظر إليّ، فضرب نور

الشمس وجهه وعشيت عيناه في اللحظة المناسبة. فـأجهزتُ عليه بخنجرٍ ثقب أحشاءه عند الكبد. انطفئ في لحظة واحدة، رمى سلاحه، وضع يده على خصره، وتكوّر على نفسه ورأسه في ركبتيه. أصدرت آنّا أول شهقاتها ثم أجهشت بالبكاء واقفة بيننا، ووجهها الشاحب يتلوى بملامح الأسى. وضعتُ الخنجر على الأرض، لم يعد ينفعني بشيء آخر. دخل بعض الناس إلى الباحة، وأخذني دون غايتانو من ذراعي وحملني. التقطت كتبي من أمام المكتب، وكان ذراعي الأيمن ينزف بشدة فاستندت إليه أكثر. تجمّع كل أهل الحي عند البوابة وفسحوا لنا المجال للعبور. كان بينهم من يقول: "أحسنَ صنعاً" وآخر يصيح: "مجرم". وكان هناك التوأمين أيضاً. سمعت أحدهما يقول للآخر: "فلننجو بأنفسنا"، كان اوريست إذن. ورأيت وجه صاحب المعطف الأبيض الذي جاء الليلة الماضية. كانت دمائي تنزف ورأسي يدور. وضع دون غايتانو معطفه على ذراعي ليغطّي الجرح. وبينما كنا ننزل معاً من الحارة، رأينا شرطيان يصعدان. فدخلنا إلى صيدلية قريبة. وأدخلنا الصيدلي إلى مخزنه، فأوقف النزيف وخاط الجرح بآلة الترقيع. لم يقل أحدهم أية كلمة، وخرجنا بعد أن اشترينا الأدوية.

نزلنا إلى الشاطئ. كانت الطبيعة تعانق المدينة في ذلك النهار. وفي سانتا لوشيا ثمة سيّاح وسائقو عربات يافعون يثنون أكمام قمصانهم. كنا نمشي ولم أكن أسأل إلى أين. جففت الشمس دمائي، وأضفتْ لمعاناً على القوارب، وأزالت شقاء الذين نزلوا من الأحياء الباردة ليلتمسوا دفأها. جلسنا على الرصيف المريح أكثر من السرير في البيت، نتسول رأفة الشمس. كانت العربات تحمل جنوداً أمريكيين في جولة سياحية. كان هؤلاء أبناء أولئك الواصلين إلى مدينة محررة. لماذا

بقي أكثرهم هنا؟ لأنهم وَرَثة ذلك النصر. هل النصر يورّث؟ لابدّ أن تدوم لحظة العدو على الأرض كاملةً كي تزول.

لم أر ما فعلته انتصاراً، فقد أنقذت نفسي بالخنجر وحسب. وها أنذا أبتعد، أمّا المنتصر يبقى، مثل الأمريكان. أين كان دون غايتانو يأخذني؟ ليس إلى المخفر بالتأكيد. ربما حان دوري لأعيش في مخبأ. والمخبأ في البناية بات مكشوفاً وآنا تعرفه جيداً. كنت أشعر بالتعب وارتفاع الحرارة في يوم جميل ومشرق.

- هذا مكاني يا دون غايتانو.
- ودّعه إذن. ستسافر إلى أمريكا هذه الليلة. حجزت لك بطاقة باسم مزيف على سفينة تقلّك إلى الأرجنتين. سأعطيك الخرائط بعد قليل.
- كنتَ تعرف كل شيء مسبقاً.

من أي مادة صُنعت الحياة إن كان بوسع المرء أن يتنبأ حتى بالتفاصيل الدقيقة دون أن يستطيع التدخل لتغيير مسارها؟ لهذا السبب كان حزن دون غايتانو عميقاً. استطاع أن يعالج تداعيات الموقف ببطاقة سفر إلى الأرجنتين، كالرحلة التي سلكها من قبل. إنّ المحيط سبيلنا الوحيد للهرب، نحن أهل الجنوب، يمنحنا صكّ الغفران الذي يستحيل إيجاده على اليابسة. كانت الأفكار تزقزق في رأسي، وكان يسمعها كلها. قال: "نحن نوكل أمرنا للبحر كي يعادل الحسابات". أردت أن أسأله: "لم لا تأتي أنت أيضاً؟". لكنه أجابني تلقائياً: "سأبقى هنا أحمي ظهرك. سأرسل لك الأخبار ومتى بإمكانك أن تعود. ستمكث عند صديقي الذي سيأتي ليأخذك من المرفأ". العودة؟ لا أعتقد أنني سأعود إلى مكان الدم النازف. لن أصعد نزلة الزقاق ثانية.

- لو كان عندي أب لما فعل كل ذلك لأجلي.
- نحن لا نعلم هذا. أنا وأنت ربينا بلا أبوين، لا نفهم هـذه الأمور.

انتقلنا إلى مقعد في وجه البحر. "أنت متعب. لقد خسرت دماً كثيراً". فأجبته:

- بل كان عندي دم فائض، لابدّ من خسارته لأجلها. كان مفيداً أن ترى منظر الدماء وتبكي. فالدموع ثمينة يا دون غايتانو، وهي مخرجها الوحيد من الجنون. لم تكن تبحث عن دمنا، بل عن دموعها. لم تكن تعرف كيفية البكاء قبلئذ. إنّ الدموع أغلى من الدماء.. لماذا لم تكن موجوداً في المكتب؟
- بل كنت هناك، لكني لم أكن قادراً على التدخل. حتى رجل المافيا الذي جاء البارحة، كان موجوداً. لا أحد بوسعه أن يزجّ نفسه في مسائل الشرف.. لقد أحسنت صنعاً في ترك الخنجر هناك.
- لقد علّمتني أن أحترم الخنجر، وأن أستخدمه لإنقاذ نفسي فقط. هل شاهدت المشاجرة؟
- أجل. لم يكن الدم الأول كافياً. اتفق الشاب معنا على أن لا يتدخل أحد حتى آخر قطرة دم. كنت أعلم أنك لن تموت، ولكن لم أكن أعلم كيف ستنجو. عندما رأيتك تدور حوله في الباحة، فهمت ما كان يجول في رأسك. كنت تحاول أن يبهر ضوء الشمس عينيه حتى يعجز عن البصر. لم أكن أتوقع أنك خبير لهذه الدرجة.
- عندما دخلت إلى الباحة ضربتني الشمس عند نقطة معيّنة وأردت أن أوقفه فيها. وأنا أيضاً كنت أعلم أنني لن أموت

يا دون غايتانو. كانت هذه فكرتك، وأنا كنت أسمعها في رأسي. بدأت أقرأ الأفكار مثلك.

- أعرف. البارحة هزمتني في السكوبا. أنهيت تعليمك عندي وعلينا أن نفترق.

كانت حاملة الطائرات وسفن الأسطول الأمريكي السادس تغادر الخليج تباعاً وبتناسق، وطلائها الرمادي الفاتح يذوب في البحر. كان كلون معطفي المهترئ الذي سيمضي في البحر أيضاً. لو كان عندي وقت لرقعت الكم ونظّفت الدم. "أخبرني عن آنّا متى تُشفى". لم نقل أية كلمة عن خطيبها، فضربة الخنجر كانت قاتلة. "ومن يدري أين يذهبون" قلت مشيراً إلى السفن الحربية. "لن يذهبوا إلى بيوتهم. وأنت ستذهب في هذا الاتجاه" أشار إلى الجنوب الغربي.

نظرت إلى الكتب والدفاتر على ركبتيّ، وداعاً للمدرسة. انتهت كل الدروس في آن واحد. كنت أفقد المدينة التي علّمتني، ودون غايتانو وكتب دون رايموندو. (لن نفترق حتى أعلّمك). كانت المدينة تدفعني إلى عرض البحر. لم يكن بوسعي أن أكمل حياة ذلك الطفل الذي يكبر في داخلي. في إحدى قصائده، يتمنّى سالفاتوري دي جاكومو أن يكون سمكة صغيرة في أيدي حبيبته اميليا الناعمتين لتضع عليه الطحين وترميه في المقلاة. وهذا ما حدث معي، اميليا كانت مدينة نابولي والمقلاة هذا المحيط. "الإرهاق يأتي بأفكار غبية يا دون غايتانو".

ذهبنا لنأكل في مطعم على الميناء. أعطاني البطاقة والوثائق والنقود من مدّخراته. "سأعيدها إليك مع ثمن البطاقة. لن تكون مثل الخنجر الذي سأوفيه لشخص آخر. هذه النقود سأعيدها إليك حتماً". كانت الكلمات تخرج بحزم ومن تلقاء نفسها. فما الذي أدراني بما سألاقيه في الأرجنتين؟ وماذا كنت سأعمل لأعيش وأسدّ ديونه؟ أهداني دفتراً

وأوراق الشدة وكتاب قواعد الاسبانية. وذهبت لأتصور من أجل الوثائق بينما مرّ إلى الطبّاع ليزوّر الأختام.

وصعدت إلى السفينة عند الغروب. رأيت الخليج يشعل الأضواء. وكان هنالك الكثير من المناديل البيضاء تلوّح لوداع الأعين الباكية. وكان بقربي ممن ليس من الطبقة الأولى، وليس لديه بطاقة عودة، يذرف الدموع الغالية أيضاً.

والآن، وبينما أكتب على صفحات هذا الدفتر، تتجه السفينة إلى الطرف الآخر من العالم.. المحيط يهوج تارة ويهدأ تارة أخرى.. يقولون إننا سنعبر خط الاستواء هذه الليلة.

يسعى دي لوكا للحفاظ على ذاكرة نابولي في رواية سلسة وشيّقة، غنية بالحكايات والتفاصيل المتعة. ويطرح من خلالها أسئلة بريئة عن الحياة من أبسط أمورها إلى أكثرها تعقيداً.

صحيفة "*El Mundo*" الإسبانية

شخصيات الرواية أناس عاديون، يتصفون بالحكمة والظرافة والذكاء، قاموا بثورة شعبية لاسترداد كرامتهم وحريتهم. تسلّط الرواية الضوء على مكان يقع بين أوروبا والبحر المتوسط، وفتىً يحاول أن يكوّن إدراكه ووعيه بالفكرة الحسيّة والتجربة الملموسة.

موقع "*The Complete Review*" العالمي

رواية مذهلة بحبكتها السردية المتينة وبراعة التصوير والوصف، وليدة السينما الإيطالية العريقة. بطلها صبيّ في مرحلة النشوء. له صداقة وطيدة مع بالغٍ يعلّمه الأمور، وقصة حبّ مع الفتاة والزقاق والمدينة التي تتجلى بكامل الواقعية والخيال، وبأعلى درجات الحزن والمرح.

صحيفة "*Le Figaro*" الفرنسية

نجح دي لوكا بتشكيل هوية وجدانية لبيئة نابولي المدنية والطبيعية. كما تألّق بقصّ بطولاتها التاريخية، وهي التي تعرّضت لأعتى حالات الظلم الفاشي، واستطاعت أن تتحرر من الاستبداد النازي قبل أن يصل الأمريكيون إلى شواطئها.

صحيفة "*Corriere Della Sera*" الإيطالية



سيرة ذاتية



إنريكو دي لوكا، مواليد نابولي عام 1950، والمعروف باسم هاري دي لوكا "Erri De Luca". يعتبر من أهم الأدباء في إيطاليا اليوم، وهو شاعر ومترجم عن اللغة العبرية، نقل العديد من نصوص التوراة إلى لغته الأم بلغة أدبية رفيعة.

بعد إنهاء الدراسة الثانوية عمل في مهن كثيرة كتقنيّ وسائق شاحنة وعامل بناء. كما انضمّ إلى الحركات الطلابية والعمالية النضالية في روما أيام شبابه.

ألّف روايته الأولى "ليس هنا ليس الآن" في عام 1989. ثم تتابعت كتاباته الروائية والقصصية بشكل مستمر.

صدرت رواية "اليوم ما قبل السعادة" في عام 2009 وحظيت بإعجاب كبير في الأوساط الثقافية العالمية.

كتب ما يزيد عن العشرة روايات، يتحدث معظمها عن طفولته في نابولي ويسرد أهم الوقائع التي جرت في بلاده والقارة الأوروبية أيضاً. واهتمت دواوينه الشعرية بمواضيع فلسفية كبرى كمكانة الإنسان وقيمة الحياة.

ترجمت أعماله إلى العديد من اللغات العالمية، ونال عليها جوائز مهمة على المستوى المحلي والدولي، كجائزة فرانس كولتور الفرنسية عن رواية "الخلّ وقوس القزح" عام 1992.

ويعتبر دي لوكا قلماً مهماً في الصحافة الإيطالية حالياً، يكتب فيها عن السياسة والنقد المسرحي والموسيقي والفني والأدبي.



لم يكن عليّ أن أسمّي ذلـك اليـوم قبل أن يحين الموعد. وربما يكون يوماً اعتيادياً يحمل في طياته أموراً ضرورية كـدراسة اللغة الإغريقية لكني لا أستلطف أفلاطون. كيف استطاع أن يكتب حوارات سقراط كلها؟ هل سجّل ملاحظاته في المساء كما أفعل بحكايات دون غايتانو أم أنه كان يحفظـها عن ظهر قلب؟ أفلاطـون كـان محتالاً، يقوّل أستاذه والآخـرين وجهة نظـره الخاصة، وكان ظلّه يختبئ خلفهم أهكذا يفعل الكاتب أيضاً؟ كلا. بل على الكـاتب أن يكون أصغر من المادة التي يرويها، وأن يجعل القصة تبدو كأنها تفلت منه إلى جميع الاتجاهات وأنه يحـاول جمع ما استطاع منهـا. فيشعر القارئ بلذة التفاصيل الضائعة التي سقطت من أيدي الكاتب سهواً. أما أفلاطون يأسر التاريخ خلف الأسوار ولا يسمح لأي حياة مستقلة أن تهرب منه فباتت محادثاته رتيبة تقتصر على ثنائية السؤال والجواب فقط .



رواية من إيطاليا


ISBN 978-2-84409-762-0

تصميم الغلاف
مهدي عبده

